المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ اللهِ تَعَالى
فِي هِدايَات القرْآن الكَريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

تدبّـرُ القـُرآنِ الكريـمِ
وأثـــرُه فـي تعظـيـــمِ اللهِ تعالَـــى

اسم الباحث

أ.د/ عبدالله الزبير عبدالرحمن

أ. د. عبد الله الزّبير عبد الرّحمن

تدبر القرآن الكريم وأثره في تعظيم الله

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه، ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجرًا حسنًا، ماكثين فيه أبدًا.

الحمد لله الذي أنزل القرآن مباركًا ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب.

وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ من أُنزل إليه الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه وهدًىٰ وبشرىٰ للمؤمنين، ليحق الحق بكلماته ويبطل الباطل ولو كره المشركون، اللهمّ فصلّ وسلم وبارك عليه وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين الذين يذكرون ما يُتلىٰ في بيوتهم من آيات الله والحكمة، وعلىٰ أصحابه الغرّ الميامين الذين تعلموا الإيمان والقرآن فازدادوا به إيمانًا، وعلىٰ من اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدّين،،

أمّا بعد؛ فتدبّر القرآن هو غاية الإنزال، وحكمة الترتيل، ومحقّق البركة بتلاوة الكتاب، والمحصّل للاتّباع والاتّعاظ والتخلّق والتأدّب بآدابه وأخلاقه، ولمّا كان رسول الله ﷺ أوّلَ المسلمين في التلاوة، وإمام المرتّلين في التدبّر، وسيّد العلماء في الفهم وتحصيل مراد الربّ جلّ وعلا من كلامه؛ كان خلقه القرآن كما وصفته سيّدتنا عائشة أمّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حين سألها سعد بن هشام بن عامر رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: يا أمّ المؤمنين! أخبريني بخُلُقِ رسول الله ﷺ؟ فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان خلقه القرآن، أمّا تقرأ القرآن؟ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم][1].

وإنّ من أعظم مقامات التّدبّر وأهمها: تدبّر القرآن لتعظيم الله تعالىٰ، لأنّ تعظيمه -عزّ وجلَّ- من أعظم مقاصد التدبّر والتلاوة والترتيل، لذلك، كان مهمًّا أن تُشحذ هِمم العلماء في تلمّس مواضع التعظيم بتدبّر القرآن العظيم، فكان ذلك سببًا في اختيار هذا الموضوع: (تدبّر القرآن الكريم وأثره في تعظيم الله تعالىٰ).

ولقد قصدت بهذا الاختيار أنْ أُعلِيَ الهمّة في التعرّف علىٰ قضايا التدبّر ومسائله، وأنْ أشغل همّي في ممارسة التدبّر، وأدير رحىٰ عقلي في التفكّر والتفّهم لموارد التعظيم، وأستفزّ بصيرتي لاجتلاء دُرّر المعاني بغواصات الفهم من أعماق النصوص، وأجلّي بصري لاجتناء حِكَمِ التنزيل من آيات التعظيم المبثوثة في الكتاب الكريم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦٥)، وقال الأرناؤوط: «حديث صحيح».

ولقد بدأتُ أوائل النظر ومبادئ التطلع، ودار رحَىٰ التعقّل أُوْلَىٰ دوراته، وبدأت الهمّة في الاعتلاء، والبصيرة في الاجتلاء، والبصر في الاجتناء، لولاَ ضيق الحال بتحديد المجال.

ولهذا: جعلت بحثي في ثلاثة مباحث، علىٰ مقدمة وخاتمة:

المبحث الأول: في حقيقة التدبّر ومحقّقاته.

والمبحث الثاني: في التدبّر ووجوه تعظيم الله تعالىٰ في القرآن الكريم.

والمبحث الثالث: في التدبّر ومظاهر تعظيم الله تعالىٰ في الكتاب الكريم.

والله تعالىٰ أسأله أن يوفّق ويسدّد ويهدي إلىٰ الحقّ.

والحمد لله رب العالمين،،

المبحث الأول: التدبّر حقيقته ومحققاته

في هذا المبحث أسعىٰ لبيان أمر التدبّر وتأصيل حقيقته من أصوله اللغوية ودلالاتها القرآنية وما فهمه أهل التفسير من مراده في موارده وسياقاته في الآيات التي وردت لفظتها. بَدْءًا بمعناه اللُّغوي، ومرورًا بمعناه الاصطلاحي ثم ما يلزم من بيان حقيقته ومراده ومقامه في مطالب علىٰ نحو ما يلي:

المطلب الأول: حقيقة التدبّر ومراده

الفرع الأول: حقيقة التدبّر في اللغة والاصطلاح:

التدبّر في أصل اللغة: من دبّر يدبّر تدبيرًا وتدبّرًا، من دُبر الأمر ودَبرته، أي عاقبته وآخره.

جاء في لسان العرب: «الدُّبرة العاقبة، ودبر الأمر وتدبّره: نظر في عاقبته، واستدبره: رأىٰ في عاقبته ما لم ير في صدره، وعرف الأمر تدبرًا: أي بآخره. قال جرير:

ولا تتقون الشـرّ حتىٰ يصـيبكم ولا تـعـرفـون الأمـر إلا تـدبُّـرَا

و التدبير في الأمر: أن تنظر إلىٰ ما تؤول إليه عاقبته، والتدبّر: التفكر فيه»[1].

وفي (تاج العروس): «التَّدَبُّر هو: التَّفكُّر بتَحْصِيل المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصِيل مَعْرِفةٍ ثالثة»[2].

وجاء في (مقاييس اللغة): «الدال والباء والراء أصل هذا الباب أن جله في قياس واحد وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قبله وتشذ عنه كلمات يسيرة نذكرها فمعظم الباب أن الدبر خلاف القبل. والتدبير أن يدبر الإنسان أمره وذلك أنه ينظر إلىٰ ما تصير عاقبته وآخره وهو دبره»[3].

ففي أصل اللغة يكون التدبّر بمعنىٰ التفكّر الناظر إلىٰ عاقبة الأمور ونتائجها وآثار التصرفات والأقوال، بما يؤول إليه الأمر، لإحكام استخراج المعنىٰ المقصود من الأقوال والأفعال.

فيدور معنىٰ التدبّر في أصل الوضع إذنْ: حول التفكّر، إمّا بتحصيل المعرفتين القائمتين علىٰ المقدمات، وإمّا بالنظر إلىٰ ما يؤول إليه الأمر، ففي كلٍّ يكون التدبّر بمعنىٰ التفكّر، ولكن بزيادة التعمّق، ليكون بمعنىٰ التفكّر العميق أو المتعمّق.

---

(١) لسان العرب (٤/ ٢٧٣).

(٢) تاج العروس (١١/ ٢٦٥).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٢/ ٣٢٤).

التّدبّر في الاصطلاح:

أما التّدبّر في اصطلاح العلماء؛ فنجد لأهل العلم عباراتٍ تبيّن معنىٰ التدبّر، تتلاقَىٰ في مدلولها، وإنْ تفرّقت ألفاظهم وكلماتهم، وكلها تجتمع عند النظر، والتأمّل، واعتبار مآل الأمور، وعواقبها.

وإنّي ذاكرٌ بعض تعريفاتهم(١):

١- يقول الشَّيخ السّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك».

٢- وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تفهمه والتفكر فيه وفي معانيه»(٢).

وقد أخذ هذا التَّعريف من أصل التَّدبّر اللُّغوي «تدبرت الشيء فكرت في عاقبته»، وفي الحديث: «لا تدابروا»(٣)، أي: لا يولي بعضكم بعضًا دبره. وأدبر القومُ: مضىٰ أمرهم إلىٰ آخره. والتَّدبير: أن يدبّر الإنسان أمره كأنه ينظر إلىٰ ما تصير إليه عاقبته.

٣- وقال رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المنار): «التدبّر: هو النظر في إدبار الأمور وعواقبها، وتدبر الكلام هو النظر والتفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة العامل به والمخالف له».

٤- وعند الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو التأمل والتفكّر، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا يتدبرونه. يقال: تدبرت الشَّيء: تفكّرت في عاقبته وتأملته، ثمّ استعمل في كلّ تأمل، والتّدبير: أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلىٰ ما تصير إليه عاقبته». والتَّدبّر عنده «لا يتصوّر بدون الوقوف علىٰ المعنىٰ».

٥- وقال النَّسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التدبّر: التأمل والنظر في أدبار الأمر وما يؤول إليه في عاقبته. ثم استعمل في كل تأمل. والتفكر: تصرف القلب بالنظر في الدلائل».

---

(١) راجع: تفسير السّعدي (١٨٩)، والجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٩٠)، وفتح القدير (٢/ ١٨٠)، و(٥/ ١٤٤)، وتفسير المنار (٥/ ٢٣٣)، والمحرر الوجيز (٢/ ١٦١)، والتفسير الكبير (١٠/ ١٥٠)، وتفسير النسفي (١/ ٢٤١)، وتفسير القاسمي (٢/ ٢٥٧)، والتحرير والتنوير (٤/ ٢٠٠).

(٢) ذكر معنىٰ التفهم في (آية محمد): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، وذكر البقية في (آية النساء): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾. راجع: تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠)، و(١٦/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٠٦٤، ٦٠٦٦)، ومسلم (٦٦٩٠، ٦٧٠١)، والموطأ (١٦١٥).

٦- وقال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأصل التَّدبّر: التَّأمل والنَّظر في أدبار الأمر وعواقبه خاصة، ثمّ استعمل في كلّ تأمّل، سواء كان نظرًا في حقيقة الشَّيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه.

٧- وعند ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتَّدبُّر: النَّظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، بالنّظر والاستدلال ومعرفة مواقع الحُجّة».

٨- وقال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التدبير والتدبر: عبارة عن النّظر في عواقب الأمور وأدبارها، ومنه قوله: إلام تدبروا أعجاز أمور قد ولّت صدورها، ويقال في فصيح الكلام: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت، أي: لو عرفت في صدر أمري ما عرفت من عاقبته».

٩- وعند الشّيخ ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتدبّر مشتق من الدّبر، أي: الظَّهر، اشتقوا من الدّبر فعلًا، فقالوا: تدبَّر: إذا نظر في دُبر الأمر، أي: في غائبه، أو في عاقبته، فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة. والتَّدبّر يتعدّىٰ إلىٰ المتأمل فيه بنفسه، يقال: تدبر الأمر. فمعنىٰ: ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يتأملون دلالته، وذلك يحتمل معنيين، أحدهما: أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته علىٰ مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي: تدبر تفاصيله. وثانيهما: أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته علىٰ أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق. وسياق هذه الآيات يرجِّح حمل التَّدبُّر هنا علىٰ المعنىٰ الأوَّل، أي: لو تأمّلوا وتدبروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم، ولما بقوا علىٰ فتنتهم التي هي سبب إضمارهم الكفر مع إظهارهم الإسلام. وكلا المعنيين صالحٌ بحالهم، إلَّا أنَّ المعنىٰ الأوَّل أشدّ ارتباطًا بما حُكي عنهم من أحوالهم».

فكلها إنْ لاحظت متلاقيةٌ في معنىٰ التأمّل والتفهم والتفكّر في الآيات والدلالات لتحصيل ما تصير إليه العاقبة، غير أنّ ما يمكن أن يكون معنًىٰ للتَّدبُّر اصطلاحًا وباستصحاب ما نقلناه من عبارات علمائنا -رحمهم الله تعالىٰ-، هو أن نقول في معناه الاصطلاحي: «**إنعام النظر وإجالة الفكر في آيات الكتاب العزيز لتحصيل المعاني والحِكَم المقصودة وراء النصوص والظواهر بما لا يخرج عن معهود الاستدلال وأعراف الاستنباط**».

- فالتدبّر لا يتحقق بأوَّليَّات النظر، بل لا بدّ فيه من أن يكون المتدبّر قد أنعم النظر وأجال الفكر في النصّ القرآني حتىٰ يحصِّل المعرفة المطلوبة، ولذلك كان علىٰ وزن تفعّل الذي يقتضي التكرار.

- وليس مقصود التدبّر مجرد استنباط الحكم الشرعي، لأن الحكم الشرعي قد يظهر للمستدل من غير تدبّرٍ كامل، بل بمجرد النظر أحيانًا، لأن ظواهر النصوص هي موارد الأحكام غالبًا، ولذلك كان الأصل وجوب الأخذ بالظاهر في عرف أهل الأصول والفقه، **أمّا التّدبّر**؛ فإنّ المقصود منه تحصيل المعاني والحِكَم التي راعاها الشارع الحكيم في قوله وأمره وحكمه وإرشاده وتوجيهه.
- ولا يُحَصَّل ذلك دائمًا إلَّا بالغوص في أعماق النصوص وطلبها والسعي إلىٰ وراء الظواهر ومبادِرات المعاني من الألفاظ، وطريق ذلك: تجاوز دلالة المطابقة إلىٰ دلالة التضمن ثم تعدّيها إلىٰ دلالة الالتزام.
- ولأنّ الغوص في أعماق النصوص والظواهر يدّعيه كثيرون، وأكثرهم يفسد ولا يصلح، ويضل ولا يهتدي؛ شرطنا للتدبّر شرطًا مهمًا وهو قيد التحصيل بأن لا يخرج عن المعهود لدىٰ أهل الاستنباط من مسالك الاستنباط والمعروف عند المستدلين من طرائق الاستدلال.

المطلب الثاني: مجامع التدبّر ومعالمه

فالتدبّر الذي هو إنعام النظر وإجالة الفكر بتعمّق في كتاب الله -تعالىٰ- لا يكتمل، ولا يتحقق إلَّا بتوافر جملةٍ من الأعمال والآداب تمثّل مجامعه ومعالمه ليَصْدُق التدبّر لكلام الله تعالىٰ، وهي إجمالًا:

١- التفهّم والتفكّر للألفاظ والدلالات القرآنية.
٢- التأمّل الوفير لتعقّل الحجج الإلهية والحكم الربانية لتحريك القلب والفؤاد استبشارًا أو انزجارًا.
٣- العزم علىٰ حمل النفس علىٰ الإقبال لمراد العليّ العظيم بلطيف خطابه.
٤- الاتعاظ بالمواعظ الرهيبة التي تتضمنها الأخبار والمطالب القرآنية من الأوامر والنواهي.
٥- التحقق بأخلاق القرآن والتصديق بمقاصده ومراميه باتباع القرآن والعمل بأحكامه وآدابه.

هذه الأمور نبّه إليها صاحب القرآن ﷺ ومن بعده علماؤنا الأخيار -رحمة الله عليهم-:

- فعن الاتعاظ والتأثّر جاء تنبيه النبيِّ ﷺ حين مرّ برجل من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقرأ آيةً ويبكي، ويردِّدها، فقال ﷺ: «ألم تسمعوا إلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزّمل: ٤]»، قال: «هذا التّرتيل»[1].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٦٩٢)، وابن المبارك في (الزهد: ١١٩٩). انظر تفسير القرطبي (٢١/ ٣٢٣).

ولهذا قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: «أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مَهَلٍ وبيانٍ مع تدبّر المعاني»(١).

- وعن التعقّل لحجج الله ومراده من خطابه؛ قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحبّ الناس في القراءة إلىٰ الله أعقلهم عنه»(٢).

وكذلك يقول الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص: ٢٩]: «ليتدبّروا حُجَج الله التي فيه، وما شرع الله فيه من شرائعه، فيتَّعظِوا ويعملوا به». وفي تفسير: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: «وليعتبر أولو العقول والحِجا ما في هذا الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عمّا هم عليه مقيمون من الضلالة، وينتهوا إلىٰ ما دلَّهم عليه من الرَّشاد وسبيل الصَّواب»(٣).

- وعن العزم علىٰ حمل النَّفس علىٰ الإقبال لمراد العليّ العظيم بلطيف خطابه، قال أبو بكر بن طاهر رَحِمَهُ اللَّهُ: «تدبَّرْ في لطائف خطابه، وطالبْ نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرَّك بالإقبال عليه»(٤).
- وعن الاتباع والتحقّق، قال الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَرَأَهُ عَبِيدٌ وَصِبْيَانٌ لَمْ يَأْخُذُوهُ مِنْ أَوَّلِهِ، وَلاَ عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنْ رُئِيَ فِي عَمَلِهِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وَإِنَّمَا تَدَبُّرُ آيَاتِهِ: اتِّبَاعُهُ بِعَمَلِهِ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَارِئْكَ، وَاللهِ مَا كَانَتِ الْقُرَّاءُ تَفْعَلُ هَذَا، وَاللهِ مَا هُمْ بِالْقُرَّاءِ، وَلاَ الْوَرَعَةِ، لاَ كَثَّرَ اللهُ فِي النَّاسِ أَمْثَالَهُمْ، لاَ كَثَّرَ اللهُ فِي النَّاسِ أَمْثَالَهُمْ»(٥).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: في قوله تعالىٰ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: «وما تدبر آياته إلَّا اتباعه بعلمه، والله، ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتىٰ إنَّ أحدهم ليقول: والله، لقد قرأتُ القرآنَ كلّه وما أسقط منه حرفًا واحدًا، وقد أسقطه كلَّه، ما ترىٰ له في القرآن من خُلُقٍ

---

(١) تفسير القرطبي (٢١ / ٣٢٢ – ٣٢٣).
(٢) تفسير القرطبي (٢١ / ٣٢٢ – ٣٢٣).
(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ٧٩ – ٨٠).
(٤) تفسير القرطبي (٢١/ ٣٢٣).
(٥) أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان: ٢٤٠٨)، وسعيد بن منصور (١٣٥)، وقال سعد بن عبد الله آل حميد: «إسناده صحيح».

ولا عملٍ، وحتىٰ إنَّ أحدهم ليقول: والله، إنِّي لأقرأ السُّورة في نَفَس واحد، والله ما هؤلاء بالقُرَّاء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعة، ومتىٰ كان القُرَّاء يقولون مثل هذا، لا كثَّر الله في المسلمين من هؤلاء»[(١)].

المطلب الثالث: مقام التدبّر وحكمه

❁ **أوَّلًا: في مقام التَّدبُّر:**

لا شكَّ أنَّ كلَّ ما هو مُعينٌ علىٰ الارتباط بالقرآن وعلىٰ معرفته؛ من أعظم ما ينبغي طلبُه وتعلُّمه والتزامُه. وكلُّ علمٍ من علوم القرآن؛ هو في ذاته أرفع مقامًا، وأحسن رِئيًا، وأسعد شأنًا، تفسيرًا كان أو تأويلًا أو تجويدًا، أو غير ذلك ممَّا سواها من العلوم.

غير أنَّ مقام التَّدبُّر أعْلَا، ومكانه أسمىٰ؛ لأنَّه العامل علىٰ فهم كلامه -عزَّ وجلَّ-، الحامل علىٰ التَّخلُّق به، والتَّأدُّب بآدابه، السَّائق إلىٰ حدائق معاني القرآن البهيجة، والمنزَّه بصاحبه إلىٰ بساتين مراداته الزَّاهرة، ورياضه النَّاضرة، والمتفيئ بالمتدبر ظلالَ مقاصده الوارفة.

فأين سواه منه؟ مع فضله ومكانه؟ فدرجة التدبّر المرتقىٰ، ومقامه أعلىٰ المرتجىٰ، ولذلك كان طلبه الأحبّ، ولزومه الحال الأصوب، ومن كان أغلب أحواله التِّلاوة المتدبّرة استصحبته السَّعادة الدُّنيوية والتَّوفيق العاجل، وحمل أعلام الشَّرافة في أمَّته[(٢)]، واستدرج معالم النُّبوة بين جَنبيه[(٣)].

- كيف لا!! **وتدبّر القرآن هو مقصود إنزاله**؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٥٩٨٤)، وشرح السنة (١/ ١٨٩).

(٢) إشارة إلىٰ حديث النَّبيِّ ﷺ: «أشراف أُمَّتي حملة القرآن»، أخرجه الطَّبراني (١٢٤٩٤)، والبيهقي في (شعب الإيمان: ٢٤٤٧)، وابن أبي الدنيا في (التهجد وقيام الليل: ١٠٧-١٠٨)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٨/ ٨٠)، وضعَّفوه بسبب سعد بن سعيد الجُرجاني، وضعَّفه الألباني في (ضعيف التّرغيب والتّرهيب: ٣٦٦)، ثمَّ صححه في (صحيح التّرغيب والتّرهيب: ٦٢٨)، فعُدَّ ممَّا تراجع الألباني في تضعيفه من الأحاديث.

(٣) إشارة إلىٰ حديث النَّبيِّ ﷺ: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جَنبيه غير أنَّه لا يُوحىٰ إليه»، أخرجه الحاكم (٢٠٢٨)، وقال: «صحيح الإسناد»، والبيهقي في (شعب الإيمان: ٢٣٥٣)، (الأسماء والصفات: ٥٧٢).

قال الشُّوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: «وفي الآية دليلٌ علىٰ أنَّ الله -سبحانه- إنَّما أنزل القرآن للتدبّر، والتَّفكُّر في معانيه، لا لمجرد التِّلاوة بدون تدبّر»[١].

وقال الشَّيخ الشَّنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ فيها: «قد ذكر -جلَّ وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنَّه أنزل هذا الكتاب معظِّمًا نفسه -جلَّ وعلا- بصيغة الجمع، وأنَّه كتاب مبارك، وأنَّ من حِكَم إنزاله أن يتدبَّر النَّاسُ آياته، أي: يتفهّموها ويتعقّلوها، ويمعنوا النَّظر فيها، حتىٰ يفهموا ما فيها من أنواع الهدىٰ، وأن يتذكَّر أولوا الألباب، أي: يتَّعظ أصحابُ العقول السَّليمة من شوائب الاختلال»[٢].

ورحم الله الإمام الحسن البصري يُجمل المعنَىٰ ويرشد إلىٰ المطلوب الأسنَىٰ، فيقول: «نزل القرآن ليُتدبَّر ويعمل به، فاتَّخِذوا تلاوته عملًا، فليس شيءٌ أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلىٰ نجاته منه»[٣].

- **كيف لا!! والتدبّر إعمالٌ للقلوب المتفتّحة بتفهّم القرآن، وإعمارٌ للعقول المستنيرة بالتفكّر في دلالاته، وتذكيرٌ للألبابّ الراسخة في تعقّل معانيه ومراداته.**

فأمّا الإشارة إلىٰ إعمال القلوب؛ ففي قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمد].

والتَّنبيه إلىٰ إعمار العقول؛ ففي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾[الزُّخرُف].

والإشارة إلىٰ تذكير الألباب؛ ففي قوله عزّ وجلّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص].

فالتَّدبُّر رغَّب إليه ربُّ العِزَّة بعد التَّنبيه إلىٰ أنَّه مقصوده في إنزال الكتاب، فقال عن أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[المائدة].

---

(١) فتح القدير (٦/ ٢٤٢).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٤٤).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٥١)، وانظر: (٢/ ٢٢).

وقال عن أهل السَّماع لكلامه من المَهديين المجتبين: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[مريم: ٥٨]. وقال عن أهل العلم من طوائف أمم التَّوحيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[الإسراء: ١٠٧].

بل لَفَتَ ربُّنا الأنظارَ؛ طَرَق العقولَ، وأيقظ القلوبَ بمثلٍ عن حال المتدبّر المتفهّم المتنبّه لكلام الله حين يتنزَّل حتىٰ علىٰ جماد صلبٍ أو صخرٍ أصمٍّ أو جبلٍ راسٍ، فحاله أشدّ من حال بني آدم ممّن رُكّبت فيهم العقول، وهُيّئت فيهم الأحاسيس، وأحييت فيهم المشاعر، وذلك في قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الحشر].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «حثَّ علىٰ تأمّل مواعظ القرآن، وبيّن أنه لا عذر في ترك التّدبّر، فإنّه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها؛ لانقادت لمواعظه، ولرأيتها علىٰ صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي متشققة من خشية الله... فلو أنزل هذا القرآن علىٰ جبلٍ لخشع لوعده، وتصدّع لوعيده، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه، لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده»(١).

ثمّ ربُّنا -تبارك وتعالىٰ- أنكر علىٰ المنصرف عن تدبُّر آياته، المعْرِض عن تفهّمه، المنشغل عن البحث عن معانيه ومراميه، المصروف من نفسه عن التقاط لآلئه ودرره، المحروم من ذاته عن اجتلاء لطائفه واجتناء حِكَمِه وآدابه، وكما قيل:

نِعَمَ السَّميرُ كتابُ الله إنَّ لَهُ ... حلاوةً هي أحلىٰ من جنَىٰ الضَّرْبِ
به فنونُ المعاني قد جُمِعْنَ فما ... تفتَرُّ من عَجَبٍ إلَّا إلىٰ عَجَبِ
أمرٌ ونهيٌ وأمثالٌ وموعظةٌ ... وحِكْمَةٌ أودعتْ في أفصح الكتبِ
لطائفٌ يجتليها كلُّ ذي بَصَرٍ ... وروضةٌ يجتنيها كلُّ ذي أدبِ

فاستنكر منزلَه ليُتدبّر علىٰ المحروم المصروف المعرض عن هذا الخير الغامر العامر!!، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمد]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[المؤمنون].

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٣٨٨-٣٨٩).

وحتىٰ لا يعتذر معتذرٌ عن التَّحقق بالتَّدبُّر لكتاب الله جلَّ وعلا؛ سهَّل منزل الكتاب -سبحانه وتعالىٰ- برحمته وفضله ومنِّه وكرمه؛ آياته، ويسّرها للتِّلاوة والتّرتيل والتَّعلّم والتفهّم والتَّدبّر، وهيّأها للقلوب والعقول والألباب، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر].

ومعنىٰ يَسَّرْنا القرآن: هيَّأناه للذّكر، منْ قولهم: يَسَّر فَرَسَه، أي: هَيَّأه للركوب بإلْجامِه، قال الشاعر(١):

فَقُمتُ إليه باللِّجام مُيَسَّرًا هنالك يَجْزِيني الذي كنتُ أصنع

فهيأ ربُّنا -تبارك وتعالىٰ- القرآن للعقول والقلوب والأفهام ليكون تدبُّره ميسورًا وتفهُّمه سهلًا متاحًا لكلّ قارئ تالٍ.

وقيل: «سهَّلناه للفهم والاتِّعاظ به لِما تضمن من البَراهين والحِكَم البليغة»(٢).

وقال أبو السُّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: «أي: وبالله لقد سهَّلَنا القرآنَ لقومِكَ بأنْ أنزلناهُ علىٰ لغتِهم، وشحنَّاهُ بأنواعِ المواعظِ والعبر، وصرَّفنا فيهِ من الوعيدِ والوعدِ ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: للتذكرِ والاتّعاظِ، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنكارٌ ونفيٌ للمُتَّعظِ علىٰ أبلغِ وجهٍ وآكدِه، حيثُ يدلُّ علىٰ أنَّه لا يقدرُ أحدٌ أنْ يجيبَ المستفهَم بنَعَمْ، وحَملُ تيسيرِه علىٰ تسهيلِ حفظِه بجزالةِ نظمِه، وعذوبةِ ألفاظِه وعباراتِه، ممّا لا يساعدُه المقامُ»(٣).

وقال السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ولقد يسَّرنا وسهَّلنا هذا القرآن الكريم؛ ألفاظَه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنَّه أحسن الكلام لفظًا، وأصدقه معنًىٰ، وأبيَنه تفسيرًا، فكلّ من أقبل عليه يسَّر الله عليه مطلوبَه غايةَ التَّيسير، وسهَّله عليه، والذِّكر شاملٌ لكلِّ ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنَّهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النَّافعة والأخبار الصَّادقة»(٤).

ويقول تعالىٰ في (سورة الدُّخان): ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

---

(١) الدُّرّ المصون (١/ ٥٠٧٢).

(٢) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٢٣٤).

(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٣٨).

(٤) تفسير السعدي (٨٢٥).

وهنا تعليل أزيد بيانًا أن تيسير الله -تعالىٰ- للقرآن وبلسان محمدٍ ﷺ حِكمته ومقصوده التفهّم والتعقّل والتذكّر.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما يسَّرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بيِّنًا جليًّا بلسانك الذي هو أفصح اللُّغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهَّمون ويعملون»[(١)].

❁ ثانيًا: حكم التدبّر:

يرىٰ الشَّيخ الشَّنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في (أضواء البيان) أنّ تدبر القرآن الكريم أمرٌ لا بدّ منه للمسلمين، وأنَّ الإعراض عنه وعن تفهّمه والعمل به من أعظم المناكر وأشنعها.

وهذا يعني: أنّه يذهب إلىٰ وجوب التَّدبُّر، مستدِلًّا بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

فقال: «ومعلوم أنَّ كلَّ مَن لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم، أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنَّه مُعرِضٌ عنها، غير متدبِّر لها، فيستحق الإنكار والتَّوبيخ المذكور في الآيات؛ إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به علىٰ التَّدبُّر، وقد شكا النَّبيُّ ﷺ إلىٰ ربِّه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان]. وهذه الآيات المذكورة تدلُّ علىٰ أنَّ تدبُّر القرآن وتفهّمه وتعلّمه والعمل به= أمرٌ لا بدَّ منه للمسلمين»، قال: «فإعراض كثير من الأقطار عن النَّظر في كتاب الله وتفهُّمه والعمل به وبالسُّنَّة الثَّابتة المبيِّنة له= من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظنَّ فاعلوه أنَّهم علىٰ هدًىٰ»[(٢)].

بينما نجد الإمام النَّوويَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يعبِّر عن ذلك بقوله: «ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع، فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر»[(٣)].

وينبغي في استخدامات الفقهاء والأصوليين غالبًا يراد به الدَّلالة علىٰ الاستحباب.

---

(١) تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٣).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٢٥٧).
(٣) الأذكار للنووي (١٣٥).

ونجد الإمام الزركشيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يجعل التَّدبّر مستحبًا من كمال التّرتيل، حيثُ قال: «فحقٌّ علىٰ كلِّ امرئ مسلم قرأ القرآن أن يرتِّلَه، وكمال ترتيله تفخيمُ ألفاظه، والإبانةُ عن حروفه، والإفصاحُ لجميعه بالتَّدبُّر حتىٰ يصل بكلّ ما بعده»(١).

وينصّ السُّيوطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ أنَّ التَّدبُّر من سَنن القراءة، وقد قال: «وتُسَنُّ القراءةُ بالتَّدبُّر والتَّفهُّم؛ فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم. وبه تنشرح الصُّدور، وتستنير القلوب، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]. وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[محمد: ٢٩]. وصفة ذلك؛ أن يشغل قلبُه بالتَّفكير في معنىٰ ما يلفظ به، فيعرف معنىٰ كلّ آية، ويتأمّل الأوامر والنَّواهي، ويعتقد قبولَ ذلك، فإن كان ممَّا قصر عنه فيما مضىٰ؛ اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة؛ استبشر وسأل، أو عذابٍ؛ أشفق وتعوَّذ، أو تنزيهٍ؛ نزَّه وعظَّم، أو دعاءٍ؛ تضرَّع وطلب»(٢).

وبهذا يتَّضح أنَّ العلماء علىٰ فريقين في حكم التدبّر:

الفريق الأوَّل: يمثِّلهم النَّوويُّ والزَّركشيُّ والسُّيوطيُّ -رحمهم الله-، وهم يرون أنَّ التَّدبُّر مسنونٌ مستحبٌ، لا يلزم ولا يجب.

والفريق الثَّاني: يمثِّلهم الشَّيخ الشَّنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يرىٰ وجوب التَّدبُّر علىٰ المسلمين.

المطلب الرَّابع: أدوات التَّدبُّر

وأدوات التَّدبّر متضامنة متعاونة متعاضدة، لا ينفكُّ بعضُهما عن بعض، ولا تستغني إحداها عن الأخرىٰ، وهي أدواتٌ قلبيةٌ ذاتيّة، تقيم عودَ التَّدبُّر، وتقوِّم أودَ التَّذكُّر، وتشدُّ عضدَ المتفهِّم المتفكِّر، وتعينُ عقلَ المتدبِّر، وتصوِّب نظرَه، وتوقِظ بصيرتَه، وتوقِفُ قلبَه المرتبط بكتاب الله المربوط بالطُّمأنينة علىٰ ربوةٍ ذاتِ قرار ومعين؛ ليحدِّق بالبصر، ويدقِّق بالبصيرة، فيستنبط غُرر الأحكام، ويستخرجَ دُرر المعاني، وذلك هو المطلب المرام من تدبُّر كتاب الله العلَّام -جلَّ وعلا-.

وأظهر أدوات التَّدبُّر خمسٌ، هي: التَّفهُّم، والتَّفكُّر، والتَّذكُّر، والتَّأمُّل، والاعتبار.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٤٩).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٩٥).

ولقد رأينا عبارات الأئمة في تعريف التَّدبُّر قد اشتملت علىٰ هذه الأدوات، ممَّا يجعل التَّدبُّر لا يخرج عن إحداها، فالمتدبِّر إمَّا متفهِّم، أو متفكِّر، أو معتبر، أو متذكِّر، أو متأمِّل.

❁ **أمَّا التَّفهُّم**: فهو طلب الفهم. وزيادة التَّاء مع تضعيف الهاء؛ زيادةٌ في معنىٰ الفهم أو تعميقٌ له، والآخر هو الأوْلَىٰ في باب التَّدبُّر، فالتَّفهُّم هو عميقُ الفهم، وأغوصه.

فالفهمُ في أصل الوضع والاصطلاح: تصوُّر المعاني من ألفاظ الكلام، أو هو: صحَّة الانتقال من الملزومات إلىٰ اللَّوازم[١]، أو هو كما قال الرَّاغب الأصفهانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هيئةٌ للإنسان بها تتحقَّق معاني ما يَحسُن»[٢].

والتَّفهُّم إدراكٌ خفيٌّ دقيقٌ للمدلولات البعيدة في وقائع الأحوال وسياقات الأقوال، وهو فوق العلم ومعرفة الحُكْم، وربُّ العِزَّة يخصُّ به من شاء، كما خصَّ نبيَّه سليمان دون أبيه عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: ٧٩].

وواقعة التَّفهُّم أنَّ رجلين تخاصما إلىٰ نبيِّ الله دَاوُدَ، حين دخلت غنمُ أحدهما علىٰ زرع الآخر باللَّيل فأفسدته، فقضىٰ دَاوُد بأنْ يأخذ صاحبُ الزَّرع الغنمَ، علىٰ أنَّ قيمة الزَّرع كانت مثلَ قيمة الغنم، فدخل سليمانُ علىٰ أبيه، فقال: يا نبيَّ الله، لو حكمتَ بغير هذا كان أرفق للجميع!!، قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحبُ الغنم الأرضَ ليصلحها حتىٰ يعود زرعُها كما كان، ويأخذ صاحبُ الزَّرع الغنمَ وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا أكمل الزَّرع؛ رُدَّتِ الغنمُ إلىٰ صاحبها، والأرضُ بزرعها إلىٰ ربِّها. فقال له داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: وُفِّقتَ يا بُنيَّ. وقضىٰ بينهما بذلك. ووجه حكم سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أنَّه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الزَّرع، وواجبٌ علىٰ صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتىٰ يزولَ الضَّرر والنُّقصان[٣].

وتفهُّمُ سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للمسألة ههنا؛ بالتَّنبُّه إلىٰ ما وقع من ضرر ومفسدة علىٰ صاحب الزَّرع، وما فات من نفع ومصلحة عليه، فالواجب دفع الضَّرر وتلافيه، وتعويض ما فات من المصلحة والنَّفع. فتلافىٰ ما وقع من الضَّرر وعَوَّض عمَّا فات من المصلحة بما قضىٰ لصاحب الزَّرع المتضرِّر، دون أن يضيِّعَ الغنمَ علىٰ صاحبها، وبهذا حقَّق الرِّفق بالطَّرفين، وتلافي الضَّرر عن الاثنين دون اضطرار لركوب أخفِّ الضَّررين أو قبول أدنىٰ

(١) راجع: دستور العلماء (١/ ٢٨٧، ٣/ ٣٥).
(٢) المفردات في غريب القرآن (٣٨٦).
(٣) تفسير ابن جزي (١/ ١١٠٩).

الشَّرَّين. وهو فهمٌ تجاوز المعهود من الأحكام، وتعدَّىٰ المشهودَ من العلم في نظائر هذه الواقعة في الحكومات والأقضية، وذلك هو التَّفهُّم الذي يقوم عليه التَّدبُّر، ويتأدَّىٰ.

❁ **وأمَّا التفكّر**: فهو تصرُّف القلب في معاني الأشياء لدَرَك المطلوب، فغاية التَّفكُّر إدراك المراد. فهو أداة تحقِّق التَّدبُّر وتوفِّره؛ إذ التَّفكُّر حقيقته: تصرُّف القلب بالنَّظر في الدَّليل. والتَّدبُّر: تصرُّف القلب بالنَّظر في العواقب[١]، فلا شكَّ أنَّ التَّفكُّر سابقٌ في الخَطو إلىٰ إدراك المراد علىٰ التَّدبُّر، وإن كانت غاية كليهما في القرآن إدراكَ المراد من خطاب الله.

وقد قيل في التَّفكُّر إنَّه: اِلتماس الغايات من مباديها. وقيل: تلمّس البصيرة واستدراك البُغية[٢]. وقيل: تصرُّف القلب في معاني الأشياء لدَرَك المطلوب، وسراج القلب يرىٰ به خيرَه وشرَّه ومنافعَه ومضارَّه، وكلُّ قلب لا تفكُّر فيه؛ فهو في ظلمات يتخبّط. وقيل: هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء. وقيل: التَّفكُّر تصفيةُ القلب بموارد الفوائد. وقيل: هو مصباح الاعتبار، ومفتاح الاختيار. وقيل: هو حديقة أشجار الحقائق وحَدَقة أنوار الدَّقائق. وقيل: مزرعة الحقيقة، ومشرعة الشَّريعة. وقيل: فناءُ الدُّنيا وزوالها، وميزان بقاء الآخرة ونوالها. وقيل: شبكة طائر الحكمة. وقيل: هو العبارة عن الشَّيء بأسهل وأيسر من لفظ الأصل[٣].

والتَّفكُّر بقلب المؤمن هو ضياء الإيمان ونوره، وقد قال عامرُ بن عبد قيس رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعتُ غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النَّبيِّ ﷺ يقولون: «إنَّ ضياء الإيمان، أو نور الإيمان التَّفكُّر»[٤].

والقلب محلُّ التَّدبُّر، والمعاني موضوع التَّدبُّر، والمطلوب والمراد غاية التَّدبُّر، فقيام التَّفكُّر بمهمَّته التي عرَّفه بها العلماء قاطعٌ بأنَّ التَّفكُّر أداة التَّدبُّر، وطريقه: تصرُّف القلب في معاني القرآن لدَرَك المطلوب من خطاب الله، والتَّحقُّق بمراده من كلامه عزَّ وجلَّ.

والتَّفكُّر التَّدبُّريُّ داخلٌ في كلِّ ممارسة للتَّدبُّر، وحاضرٌ في كلِّ وقفة تأمُّل وتفهُّم في آيات الله المبثوثة لتحصيل الحقِّ وتمحيص الباطل؛ لتحقيق أنَّه كتابٌ عزيز لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد.

---

(١) التَّعريفات (٧٦). وانظر: دستور العلماء (١/ ٢٢٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤١).

(٣) التعريفات (٨٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٥).

غير أنَّه جاء في القرآن باديًا ظاهرًا معبَّرًا به تصريحًا للتَّفكُّر في أحدَ عشرَ موضعًا، فيما وقفتُ عليه باستقراء عامّ، هي:

١- التَّفكُّر القصصي في الأحوال وما لها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾[الأعراف].

٢- التَّفكُّر التَّمثيليُّ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[يونس].

٣- التَّفكُّر التَّكوينيُّ الخُلُقيُّ، كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[الرعد]، وكما في قوله سبحانه: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾[النحل]، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الروم].

٤- التَّفكُّر التَّبيينيُّ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[النحل].

٥- التَّفكُّر التَّسخيريُّ كما في قوله -جلَّ وعلا-: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾[النحل]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[الجاثية].

٦- التَّفكُّر التَّمييزيُّ، وهو في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[الزُّمَر].

٧- التَّفكُّر التَّصويريُّ، ونجده في قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الحشر].

٨- التَّفكُّر الاستقرائيُّ كما في قوله سبحانه: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾[سبأ]، وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾[الأعراف].

٩- التَّفكُّر الواقعيُّ الحقائقيُّ كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[الأنعام].

١٠- التفكّر الحِكَميّ في قوله تعالىٰ: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾[البقرة].

١١- التَّفكُّر الاستقصائي كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾[البقرة].

وأعظم التَّفكُّر، ذاك الذي يثمر تعظيم الله، ويحمل علىٰ موافقة الطَّاعة ومجانبة المعصية، وقد قال بِشْر بن الحارث الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو تفكّر الناس في عظمة الله تعالىٰ؛ لما عصوه»[(١)].

۞ **وأمَّا التَّذكُّر**؛ فهو تفعُّل من الذِّكر، وهو ضدّ النِّسيان، ويكون بحضور صورة المذكور العلمية في القلب.

ويرىٰ الهرويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنَّ التَّذكُّر فوق التَّفكُّر؛ لأنَّ التَّفكُّر طلب، والتَّذكُّر وجود»[(٢)].

ويقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّذكُّر والتَّفكُّر منزلان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكُّره علىٰ تذكُّره وبتذكِّره علىٰ تفكُّره حتىٰ يفتح قفلُ قلبه، بإذن الفتَّاح العليم»[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٥).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤١).
(٣) المصدر نفسه.

والقلب آلة التدبّر ومحلّه، فيفتح أقفال القلوب لتتدبّر وكما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمد].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما زال أهل العلم يعودون بالتَّذكُّر علىٰ التَّفكُّر وبالتَّفكُّر علىٰ التَّذكُّر ويناطقون القلوب حتىٰ نطقت»(١).

والتَّذكُّر أداة موصلة إلىٰ التَّدبُّر بأصح الطُّرق وأصدق الوسائل؛ إذ يفتح أقفال القلوب، فتزول موانع التَّفهُّم والتَّفكُّر، فيحيىٰ القلبُ بآيات الذِّكر الحكيم.

ولذلك دعا ربُّ العِزَّة موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ للذَّهاب إلىٰ فرعون وتبليغه بلينٍ لينفذ القول الحقّ إلىٰ القلب فيتذكَّر ويخشىٰ، والخشية من ثمرات التَّدبُّر، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[طه]، و(أو) هنا بمعنىٰ الواو المرتَّبة للخشية علىٰ التَّذكُّر أو بمعنىٰ فاء السَّببية، أي: التَّذكُّر المسبب للخشية، وذلك بدليلٍ ونظير!!

أمّا الدليل؛ فآيات (النَّازعات): ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾، فلو كان اهتدىٰ لَخَشِي، ولكنه كذّب وأبىٰ، ثمّ عصىٰ: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

وأمَّا النَّظير؛ فالواو في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[المُلك]، فـ(أو) هنا بمعنىٰ الواو؛ لأنَّ سماع غير العاقل لا حُجّة فيه، وعقل مَن لم يسمع لا مؤاخذة به. ولذلك؛ فلا بدَّ أن تكون (أو) هنا بمعنىٰ الواو، فيكون المراد: لو كُنَّا نسمع ونعقل ما كنَّا في أصحاب السَّعير.

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[غافر: ١٣]؛ لأنَّ التَّدبُّر يقود إلىٰ الإنابة، ولا خير في تدبُّر لا يثمر إنابة.

قال الهرويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أبنية التَّذكُّر ثلاثة: الانتفاع بالعِظة، والاستبصار بالعبرة، والظَّفر بثمرة الفِكرة».

والانتفاع بالعِظة: «هو أن يقدح في القلب قادح الخوف والرَّجاء، فيتحرَّك للعمل طلبًا للخلاص من الخوف، ورغبةً في حصول المرجو. والاستبصار بالعبرة: هو زيادة البصيرة

(١) المصدر نفسه.

بقوة الاستحضار، لأن التذكّر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكّر في مواقع الآيات والعِبر، فهو يظفر بها بالتفكر، وتنصقل له، وتنجلي بالتَّذكُّر فيقوىٰ العزم علىٰ السَّير بحسب قوَّة الاستبصار؛ لأنَّه يوجب تحديد النَّظر فيما يحرِّك المطلب. والظَّفر بثمرة الفكرة؛ فإنَّ للفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تمامًا بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعاية لحقِّه»[(١)].

والنَّاس مع التَّذكُّر ثلاثة: «رجلٌ قلبه ميِّت، فذلك الذي لا قلبَ له، فهذا لا تنفعه ذكرىٰ ولو سمع. ورجلٌ له قلب حيٌّ مستعدٌّ، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة؛ إمّا لعدم ورودها أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها؛ فهو غائبُ القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرىٰ مع استعداده ووجود قلبه. والثالث: رجلٌ حيّ القلب مستعدٌ تُليتْ عليه الآيات فأصغىٰ بسمعه، وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه؛ فهو شاهدُ القلب، مُلْقِ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة»[(٢)].

وهم مجموعون في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[ق].

❁ **وأمّا التأمّل**؛ فهو التَّثبُّتُ في النَّظر، علىٰ قول الخليل، ومنه قول الشَّاعر:

تَأَمَّلْ ما تَقُولُ وكُنْتَ قِدْمًا قُطامِيًّا تأمُّلُهُ قليلُ

والقُطاميَّ: الصَّقْر، وهو مُكتَفٍ بنظرةٍ واحدة[(٣)].

ومعناه: «تلبث في الأمر والنظر والشيء، ويكون بتدبُّر الشَّيء وإعادة النَّظر فيه مرَّة بعد أخرىٰ ليتحقَّقه»[(٤)].

والتَّأمُّل يتحقَّق به التَّفكُّر، ويقع به التَّبصُّر، وقد جاء في (المعاجم): أنَّ التَّفكُّر التَّأمُّل، وأنَّ التَّبصُّر هو التَّأمُّل والتَّعرُّف[(٥)]، وكذلك الاعتبار.

---

(١) راجع بتوسع: مدارج السَّالكين (١/ ٤٤٤).
(٢) انظر: مدارج السَّالكين (١/ ٤٤٢).
(٣) معجم مقاييس اللغة (١٤٠).
(٤) راجع: المعجم الوسيط (١/ ٢٧)، والتَّوقيف علىٰ مهمات التَّعاريف (١/ ١٥٦).
(٥) انظر: مختار الصحاح (٧٣، ٥١٧).

وعليه، فأداة التَّدبُّر الأكثر والأصدق استعمالًا واستخدامًا؛ التأمّل، ولذلك نجد السِّعديَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعرّف التَّدبُّر بأنَّه: التَّأمُّل في معانيه، ونرىٰ الشُّوكانيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعرِّفه بأنَّه التَّأمُّل والتَّفكُّر، كما يجعل القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصلَ التَّدبُّر في التَّأمُّل والنَّظر في أدبار الأمر(١).

هذا تعريف التَّأمُّل في اللُّغة والمعنىٰ!!

أمَّا التَّأمُّل المحقِّق للتَّدبُّر في القرآن؛ فهو كما يقول ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه، وجمع الفكر علىٰ تدبّره وتعقّله».

ومَنْ تدبَّر القرآن، وأطال التَّأمُّل، وجمع منه الفكر علىٰ معاني آياته؛ فإنّها تُطلع العبد علىٰ معالم الخير والشَّرِّ بحذافيرهما، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتَتُلُّ في يده مفاتيح كنوز السَّعادة والعلوم النَّافعة، وتُثبِتُ قواعدَ الإيمان في قلبه، وتشيِّد بنيانه، وتوطِّد أركانَه، وتريه صورة الدُّنيا والآخرة والجنَّة والنَّار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتُريه أيام الله فيهم، وتبصِّره مواقعَ العبر، وتُشهِدُه عدلَ الله وفضله، وتُعرِّفه ذاتَه وأسماءَه وصفاته وأفعاله، وما يحبُّه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها. وتُعرِّفه النُّفس وصفاتها ومفسدات الأعمال، ومصححاتها. وتعرِّفه طريقَ أهل الجنَّة وأهل النَّار وأعمالهم وأحوالهم، وسيماهم ومراتب أهل السَّعادة وأهل الشَّقاوة وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه»(٢).

وكلُّ هذا متحقِّق بالتَّأمُّل التَّدبُّريِّ.

❁ **وأمّا الاعتبار**؛ فهو استبصار العبرة. وحقيقة العبرة: العبور من حكم الشَّيء إلىٰ حكم مثله. واستبصار العبر إنَّما يكون بعبور الألبابِ مشاهدَ البصر إلىٰ شواهد البصيرة، بالتَّبصُّر والتَّفكُّر والتَّأمُّل في صور الألفاظ والمباني لتحصيل حقائق المعاني، ولعلَّ ذلك هو أمرُ الله تعالىٰ في (الحشر): ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

فمن الاعتبار؛ النَّظر إلىٰ صنع الله في الذّين كفروا وعاندوا وعصوا الرَّسول من بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ مهما تحصَّنوا وتمنَّعوا عن الله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ

(١) راجع تعريفاتهم في أول المبحث.
(٢) مدارج السالكين، ج١ ص ٤٥١.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢]. ولذلك قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

ومن الاعتبار؛ النَّظر في حكمة الشَّريعة، وسنتها في مصالح الدنيا، ووجه الرّحمة للعباد بها، حتىٰ كان بعض العارفين يرىٰ آية المداينة في (البقرة) من أقوَىٰ أسباب الرَّجاء، فقيل له: وما فيها من الرَّجاء، فقال: «الدُّنيا كلُّها قليلٌ، ورزق الإنسان منها قليلٌ، والدّين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله -تعالىٰ- فيه أطول آية ليهدي عبدَه إلىٰ طريق الاحتياط في حفظ دِينه، فكيف لا يحفظ دِينَه الذي لا عِوض له منه»[(١)].

المطلب الخامس: أقفال التَّدبُّر

التَّدبُّر محلُّه القلب علىٰ ما تقرَّر، ولكن! ليس كلّ قلبٍ متدبرًا، فقد يكون مصروفًا عن التَّأمُّل، أو محرومًا من التَّفهُّم، أو مغلوبًا عن التَّفكُّر، أو محجوبًا عن التَّذكُّر، أو مسلوبًا منه الاعتبار. والحرمان والصَّرف والغلب والحجب والسَّلب؛ سببُهُ انقفالُ القلب عن تلَّقي النُّور المتلو، وتعطّل الرُّوح عن الحياة بالتّرتيل، وسُبات العقل عن التَّنبُّه إلىٰ معاني التَّنزيل، وقصور الألباب عن التِّقاط دُرَر الكتاب وغُرَر الخطاب.

هذا القلب المنقفل هو ذاك القلب المستدبر عن التَّدبُّر، وهو قلبِ الذي يولِّي دُبُره عن هدايات الكلام المنزَّل علىٰ وَفق مراد الذي أنزله هدًىٰ ونورًا.

فلا يُمكَّن أحدٌ من تدبُّر كلام الله إلَّا بمفاتيح الهداية الرَّبانية لأقفال القلوب.

وعلىٰ هذا؛ فإنَّ أقفال القلوب هي نفسها أقفال التَّدبُّر؛ لأنَّ القلب هو المتدبِّر، ولا يستطيع أنْ يتدبَّر وعليه الأقفال، وقد بيَّن ربُّ العِزَّة هذه الحقيقة بأصرحَ بيان وأفصحه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمد].

ويرىٰ الإمام القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ «الأقفال ها هنا؛ إشارةٌ إلىٰ ارتتاج القلب وخلُّوه عن الإيمان، أي: لا يدخل قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر، لأنّ الله تعالىٰ طبع علىٰ قلوبهم. وقوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾؛ لأنه لو قال: ﴿علىٰ قلوبهم﴾؛ لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة. والمراد: أَمْ علىٰ قلوبِ هؤلاء وقلوبِ مَن كانوا بهذه الصفة أقفالها»[(٢)].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدّين (٤/ ١٤٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٦-٢٤٧).

وعليه؛ فكلّ ما عطّل القلب من التدبّر بالكلية، أو أضعفه عن التفهّم، أو صرفه عنه بمشاغل وصوارف؛ فهو من أقفال التدبّر الموصدة أبواب القلوب عن التفهّم لمراد الله الحكيم ودُبُرِ أحكامه وحِكَمِه المنثورة في مشكاة الخطاب القرآني المبين.

فتكون أقفال التَّدبُّر علىٰ ثلاثة أنواع: الأقفال المعطَّلة، والأقفال المضعفة، والأقفال الصارفة.

أمّا المعطّلة؛ فهي وأخطرها، ومنها: الطبع، والختم، والعمىٰ، والنفاق، والرّان، والزيغ، والارتياب، والأكنّة، والكبر، والتنكّر.

وأمّا المضعفة؛ للقلب من التَّدبُّر: وهي أكثرها، ومنها: اللّهو، والوقر، والقسوة، والمرض، ورجس القلوب، والحجب السَّاترة[1]، والاشمئزاز من الذكر.

وأمّا الصَّارفة المشغلة عن التَّدبُّر، فهي: الصَّرف، والتَّسويل، والغفلة، والتَّغمير، والاستماع المُغرِض[2].

(١) ذكر الغزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإحياء): أنَّ حجب الفهم: أربعة، **الأوّل**: انصراف الهمّ إلىٰ تحقيق الحرف، **والثاني**: التَّقليد بجمود وتعصّب، **والثَّالث**: الإصرار علىٰ ذنب والابتلاء بهوىٰ مطاع، **والرَّابع**: اعتقاد أنه لا معنىٰ للقرآن إلَّا ما تناوله النقل. راجع بتوسّع: إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢) نرىٰ الاقتصار علىٰ هذا في هذه الورقة لضيق المجال فيها عن عرض أدلّتها وشواهدها، علىٰ أنَّ تحصيلها والوقوف عليها سهل ميسور بإذن الله.

المبحث الثاني: التدبّر ووجوه التعظيم في الكتاب الكريم

الكتابُ الكريمُ أصلٌ في تعظيم مُنزِلِه ومُوحيه جلّ وعلا، إذ القرآن بإنزاله ودلالاته وهداياته، وبمبانيه ومعانيه، وبأوامره ونواهيه، وبإرشاداته وتوجيهاته، وبأحكامه وحِكَمِه؛ مقصوده الأعظم التعريف بالله العظيم، ومعرفة الله مقصودها تعظيمه وتوقيره وتقديره وإجلاله عز وجل، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الربّ تعالىٰ في القلب، وأعرف الناس به: أشدّهم له تعظيمًا وإجلالًا»[1]، لأنّ »من عرف الله، أحبّه علىٰ قدر معرفته به، وخافه، ورجاه، وتوكّل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلىٰ لقائه، واستحيا منه، **وأجلّه وعظّمه** علىٰ قدر معرفته به»[2].

ولنُدير هذا المبحث في تدبّر الكتاب الكريم نستظهر وجوه تعظيم الله تعالىٰ في القرآن الكريم ونستخرج المعاني والشواهد والدلالات بدرجةٍ من التفهّم ونوعٍ من التفكّر تأصيلًا لهذا الباب. وباستقراءٍ عام نجد أنّ تعظيم الله تعالىٰ وقع في الكتاب الكريم علىٰ ستة أوجه، هي: التعظيم بالقيّوميّة، وبالحسيبيّة، وبالعَلِّيّة، وبالرُّبوبيّة، وبالإلهيّة، وبالأعظميّة.

وأرجو أن أوفَّق في بيانها وتجليتها بما يحقِّق مقصود هذا البحث.

❁ الوجه الأول: تعظيم الله بالقيّوميّة

وهو من أعلىٰ مراتب التعظيم، إذ به يتحقّق التَّوحيد الكامل لله تعالىٰ، وفيه تتجمع معاني الكمال له عزَّ وجلَّ، فهو قيوم السَّموات والأرض وما فيهنّ ومن فيهنّ بالخلق والأمر والتَّقدير والتَّدبير والرِّعاية والعناية، وهو تعظيم يستلزم شهود جمال الصُّنع وحسن الخَلق وتمام التَّدبير وكمال التَّقدير، وإحاطة العلم، فيحصل له بهذا التَّعظيم الإجلال والتَّقديس والاطمئنان بالذِّكر علىٰ حياته المصون بعناية الحيِّ القيُّوم، ورعاية السَّميع العليم المحيط بعلمه سائر الوجود، وبحفظ الحفيظ الرَّحيم، ولا يكون ذلك إلَّا من كملت عظمته، وتفرَّد بها.

وقد جمع القرآن الكريم هذا التَّعظيم في آية هي أعظم آية في كتاب الله[3]، فقال تعالىٰ:

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٣٩).

(٣) أخرج أحمد (٢١٣١٥): أنَّ النَّبيَّ ﷺ سأل أبيُّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أيّ آية في كتاب الله أعظم؟ =

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[البقرة].

فالحيُّ القيُّوم لا تأخذه سِنةٌ ولا نومٌ، فلا يغفل عن شؤون خلقه، وله ما في السَّموات وما في الأرض، فلا يخرج عن ملكه ولا أمره شيءٌ. ولا استطاعة لأحدٍ أو قدرة أو إمكان لنفع أو ضرٍّ إلَّا بإذنه، فلا يخرج عن إذنه شيءٌ، ولا يستقلّ بفعل دون إذنه وعلمه أحد.

وهو العليم المحيط بكلّ علم وعمل من خلقه، فلا يخرج عن علمه شيءٌ ولا يغيب، وليس لأحد مهما علا في البشرية إحاطة بشيء من علمه.

ولا يُعجزه حفظ ما خلق مهما كبر هذا الخلق وعظُم، وخلق السَّموات والأرض أكبر من خلق النَّاس ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون، فإن كان لا يؤوده حفظ السَّموات والأرض، فغيرهما أمكن وأيسر. وهذا هو الحيُّ القيُّوم العليُّ العظيم.

❁ الوجه الثَّاني: التَّعظيم بالحسيبية[1]

والحسيب هو الكافي، وقول الرَّجل للرَّجل: حسيبك الله، فمعناه: كافي إيَّاك الله[2].

وإنْ كان الغنيّ السخيّ من الناس حسيبًا لفقير محتاج، وفي نظره عظيمٌ!؛ والسيّد الوجيه حسيبًا لراجي وجاهته ويكون بذلك في عينه عظيمًا!؛ فكيف بالغني الحميد باسط الأرزاق ومستخلف الأغنياء في أموالهم ورازقهم؟ ومنعم الوجاهة للسَّادات؟

وإنْ كان القويّ المقدام المهتم بأمر المسلمين حسيبًا للضُّعفاء ينصرهم ويحميهم!؛ فيكون في نظرهم الحسيب العظيم!! فكيف بالقوِّي العزيز الجبار المنتقم؟ وما النَّصر إلَّا

فردّدها مرارًا، حتىٰ قال أبيٌّ: آية الكرسي. فقال النَّبيُّ ﷺ: «ليهنكَ العلمُ، أبا المنذر». وقال الأرناؤوط: «إسنادُه صحيحٌ علىٰ شرط مسلم».

(١) هذا النَّسب في الحسيبية صحيحٌ في التَّصريف، فصيح في اللُّغة، لأنَّ من فعيل، وفعيل إذا كان صحيح اللَّام لا يُغيّر منه شيء في النّسب، ومنه حميد وحميدي، عزيز وعزيزي، وحميمي، ووريدي، ومئيني، وجريري، وكذلك هذيلي وقريشي وثقيفي، وهو الفصيح أمّا هذليّ وقرشيّ وثقفيّ، فهو شاذٌّ. راجع: أوضح المسالك إلىٰ ألفية ابن مالك (باب النسب)، الإنصاف في مسائل الخلاف (١/ ٣٥٠).

(٢) الزَّاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٨).

مَن عنده؟؟ وإنْ كان الجنديّ الذي يحرس البلاد لتأمين العباد من الأعداء حسيبًا معظّمًا في نظرهم!؛ فكيف بخير الحافظين وهو أرحم الراحمين؛ حامي الناس من أنفسهم، وحافظهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم من كلّ شرّ وسوء؟

ولذلك فكون الله هو الحسيب الكافي وجْهٌ بينٌ من وجوه التَّعظيم.

- عند الحقوق فالله هو الحسيب الكافي لأصحاب الحقوق، وفي ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا**﴾ [النساء:٦]. فكيف يكون هذا من غير عظيم؟؟
- وفي الدَّعوة إلىٰ الحقِّ وعراقيل الطُّغاة وأعداء الحقِّ؛ فالله هو الحسيب الكافي للأنبياء والدُّعاة والعلماء، وقد قال تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا**﴾ [الأحزاب: ٣٩]. فهذا الحسيب الكافي لا يجوز إلا أن يكون عظيمًا!!
- وعند التَّعاملات الدَّولية الكبرىٰ بين الأُمّة والأمم، وبين دار الإسلام ودولة المسلمين ودار الكفر ودولتهم، مهما خطَّطوا وسلكوا مع المسلمين سبل المكر والخداع؛ فالله هو الحسيب الكافي لمن توكَّل عليه، واستعان به سبحانه، فقال في ذلك: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[الأنفال]. وفي مثل هذه الأوضاع فلا يكشف الخداع والمكر، ويكفي النَّبيَّ القائد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بنصره المؤزَّر المبين، إلَّا الحسيب العظيم.
- وقد كفىٰ نبيَّه ﷺ والمؤمنين معه بحسْبه سبحانه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾[الأنفال].
- وكفاهم من صدود الأشقياء وشقاق مَن تولَّىٰ وأدبر بحسْبه -تعالىٰ- السَّميع العليم، فقال بوعدٍ غير مخلوف: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[البقرة].
- ولأنَّه -تعالىٰ- الحسيب الوكيل، فلا أحد قادر علىٰ كشف ما يريده بأحدٍ من ضُرٍّ، ولا علىٰ ردّ أو منع أو مسك ما يريده بأحدٍ من خير أو رحمة، وكما قال سبحانه: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزُّمَر: ٣٨].
- ولأنَّه الحسيب الأعظم؛ كفىٰ عبده ورسوله ﷺ بحسْبه كفاية تامة مطلقة -جلَّ وعلا- فتقطَّعت أسباب الخوف من دون الله، وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزُّمَر].

ولذلك؛ أُمر رسول الله ﷺ أن يستكفي به استعانة واستكفاءً واستحفاظًا وتكلانًا، مقرًّا بذلك، مقرّرًا عظمته تعالىٰ مادحًا ربوبيته بأعظم خلقه «العرش»، فقال له تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[التوبة: ١٢٩].

وهكذا استبان وجه التعظيم لله بالحسيبية عزَّ وجلّ.

❁ الوجه الثالث: التعظيم بالعليّة

والله تعالىٰ هو العليّ لقهره جميع المخلوقات، ولقدره لكمال صفاته العلا وأفعاله الحُسنىٰ جلَّ وعلا. ولهذا وصف نفسه -سبحانه- به وبالمتعال، وأخبر عباده:

- أنَّه علىٰ العرش استوىٰ.
- وأنَّه استوىٰ إلىٰ السَّماء وهي دخان.
- وأنَّه إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه..
- وأنه لَمّا تجلَّىٰ ربُّه للجبل جعله دكًّا.
- أنَّه أمر عباده المؤمنين تسبيحه باسم ربك الأعلىٰ، فكان النَّبيُّ ﷺ يسبحه في سجوده: سبحان ربي الأعلىٰ[1].
- وأنَّه تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾[غافر]، وهذا لكونه العليّ.
- ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[النحل]؛ لأنه العليّ سبحانه.
- وأنَّه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾[الرعد]، ومتعال لأنَّه العليُّ جلَّ وعلا.
- وأنَّه يُدبِّر الأمر من السَّماء إلىٰ الأرض.
- وأنَّه تعرج الملائكة والرُّوح إليه، والعروج هو الصُّعود.
- وأنَّه ينزِّل الملائكةُ بالرُّوح من أمره علىٰ مَن يشاء من عباده.
- وأنَّه يُنزِّل الرِّزق لعباده بقدر ما يشاء.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٩٠)، وأبو داود (٨٧٠)، والتّرمذي (٢٦١)، والنسائي (١٠٠٨).

- وأنَّه نزَّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرًا، والإنزال لا يكون إلَّا من علٍّ، لأنَّه العليّ.
- وأنَّه رافعٌ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليه، فقال: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥]، وهذا يقتضي أنَّه العليُّ.
- وأنَّه -تعالىٰ- ينزل من فضله علىٰ من يشاء من عباده[1].

ولعظمة عَلّيته -جلَّ وعلا- زاد في وصف نفسه بالعَليّ العظيم، فقال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾[الشورىٰ].

❁ الوجه الرابع: التعظيم بالرّبوبيّة

وفي القرآن الكريم توجيهٌ لقارئيه وإرشاد لمرتّليه إلىٰ تعظيم الله تعالىٰ في ربوبيته جل وعلا، ويقف تالي القرآن علىٰ ذلك في سياق صدق ودلالة صدق من آيات الكتاب الكريم:

- فنرىٰ الله تعالىٰ ينبّه إلىٰ جلاله وعظمته لنبيٍ من أولي العزم وهو يرجو أن يرىٰ ربه تبارك وتعالىٰ وينظر إليه، فتجلىٰ الرب الكبير العظيم للجبل، ونهو الخلق العظيم، فتدكدك الجبل لعظمته وخرّ النبي صعقًا عليه السلام ليقرّر أنه تعالىٰ أعظم من أن تراه الأبصار وتدركه، وذلك في المشهد العجيب المهيب الرهيب وموسىٰ عليه السلام يقول لربه: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣].
- وعظمة الربوبية تتبدَّىٰ للقارئ التالي لكتاب الله وهو يرىٰ أنّ القرآن الكريم يوجّه عباد الله المؤمنين بكل رتبهم اللجوء إلىٰ الرب ليعوذهم مما يُخاف لأنه المستعان المستعاذ، وذلك بقول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾[المؤمنون]. وهل يستعاذ من ذي شرّ قادرٍ علىٰ الإغواء والاحتناك والإضلال والإفساد والإيقاع في درك الشرك والسوق بخطوات الفجور والفسق إلَّا بعظيم؟!

---

(١) وانظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (٧٧-٧٨).

- وعظمة الربوبية ترسخ في قلب القارئ التالي المتفهّم لكتاب الله وهو يرتّل آياتٍ تعظّم الرب وتمدحه بصفات العظمة من الملك والعلو، وهي تضيف إلىٰ الرب العظيم أعظم الخلق وأكرمه بل أمير المخلوقات، وهو العرش الموصوف بالعظمة وبالكرامة، فقال سبحانه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون]. فالعرش مخلوق عظيم كريم، فكيف بربّ هذا المخلوق العظيم الكريم إلَّا أن يكون أعظم وأكرم، وإنَّما نال العرش عظمته وكرامته بالرَّبِّ العظيم جلَّ وعلا.
- وكما نال العرش كرامته بالرَّبِّ؛ فكذلك حاز بالعظيمة لأنَّه أضيف إلىٰ الرَّبِّ، فالعظيم لا يضاف مدحًا وإجلالًا إلىٰ مهين أو حقير أو قليل أو صغير، لا يضاف قطعًا إلَّا إلىٰ عظيم كريم، ولذلك نجد قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾[المؤمنون]، وقول الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾[النمل]، وقول الله تعالىٰ: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٩].
- وعظمة الرب تتجلّىٰ لعقل كل تالٍ متدبّر فتجعله يسيخ في جنبات النفس يصيح: «سبحان ربي العظيم سبحان ربي الأعلىٰ»، حين يتلو آياتٍ تضيف أكبر الخلائق من السموات والأرض والمشارق والمغارب للرب إضافة تعظيم وتكبير، والله يقول: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾[الصافات].
- وإضافة تنويهٍ وتنزيهٍ فيقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الزُّخرُف].
- وإضافة تحميد وتمجيد، فيقول: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الجاثية]، ويقول: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾[الرحمن].
- وإضافة استعظام واستكثار لخيره وإحسانه فيقول: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[غافر: ٦٤].
- وإضافة استناد وتوكيل، فيقول: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزَّمل].

لذلك كان الأمر الإلهيُّ للنَّبيِّ ﷺ وتابعيه من المؤمنين بالتَّسبيح باسم هذا الرَّبِّ العظيم

في (سورة الواقعة) بقوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾، وختم بذلك سورتي (الواقعة والحاقة) المليئتين بحقائق الخلق والأمر وعظائم المسؤولية والجزاء، فقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٩٦، الحاقة: ٥٢].

فاستبان وانجلىٰ وجه تعظيم الرُّبوبية في القرآن الكريم والحمد لله ربِّ العالمين.

❁ الوجه الخامس: التعظيم بالإلهية

والقرآن الكريم يُكرم قارئيه ومرتليه بتنبيههم إلىٰ عظمة مُنزلِهِ وحافظه الإله الكريم جلَّ وعلا، بأنواع التَّنبيه والإلفات ليحقِّق في النَّفس الدّواعي الحاملة علىٰ تعظيم الله تعالىٰ، وليحصّل في القلب رسوخ الاعتقاد بعظمة الله تبارك اسمه، وليملأ الوجدان بالارتباط العظيم بالخالق الباري العظيم الذي عزَّ وعلا.

فالذي يتلو كتاب الله علىٰ فهم وتدبّر؛ يجد التصاق صفات التعظيم والتقديس والإجلال بالإله الواحد الذي لا إله إلا هو ..

- فيجد أنَّه الإله الموصوف بالحياة الدَّالة علىٰ كمال الوجود وبالقيومية الدَّالّة علىٰ كمال التَّقدير والتَّدبير وكمال القيام والتّقويم لخلقه وشؤونهم، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾[آل عمران].
- ويجد أنَّه الإله الموصوف بامتلاء الرَّحمة وسعتها لكلّ شيء، والمشمولة بالكرم والفضل والشَّفقة والعطف والعطاء غير المجذوذ، الحَنَّان المَنَّان، بتركيب وصف الإله الواحد بالرَّحمن الذي هو علىٰ وزن فعلان الدَّالّ علىٰ الممتلئ الفعل، وبالرَّحيم الذي هو علىٰ وزن فعيل الجامع بين الكثرة والتَّعدّي، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾[البقرة].
- ويجد القارئ للقرآن بتفكّر وتدبّر أنه الإله الموصوف بالعزّة الكاملة والحكمة الشاملة اللتين لا تجتمعان إلا في عظيم متناهي العظمة يشهد له بذلك أهل الفضل من عظماء الخلق مرفوعَي القدر والشَّأن في العالمين «الملائكة وأولي العلم» علىٰ شهادته لنفسه، فقال جلَّ وعلا: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾[آل عمران].
- ويجد تالي القرآن العظيم أنَّه الإله الواحد الأحد في قوّته علىٰ أعدائه، وقهره لعباده، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[ص: ٦٥]، فلا يرتاب حتىٰ مَنْ

عادته الارتياب أنّ عظمته فوق كلّ عظمة، وأنَّه لا يدركه عظيمٌ، ولا تقرُب عظمةٌ من عظمته، فيقرّر بلا تردّد ويردّد مع التَّالين علىٰ يقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١].

وبهذه العظمة الإلهية كان الله هو المعبود بحقٍّ المستحقّ للعبادة والإيمان، وقد خسر من أشرك به أو كفر ولم يؤمن بالله العظيم، ولم يدر ما حسابه وكيف عقابه، وخاب مَنْ استند إلىٰ ملكه وسلطانه، واعتمد علىٰ جاهه وماله، فكفر ولم يؤمن بالله العظيم، وقد حكىٰ الله حالهم، ونعىٰ عليهم مآلهم، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾[الحاقة].

فلو انتبه هذا يا حسرةً عليه لعظمة إلهه الإله الواحد؛ لما كان ذلك حاله!!، ولو شاهد عظمة إلهه الواحد لا إله إلَّا هو؛ لما خاب وخسر!!، وقد علَّل ربَّ العِزَّة غفلته عن الحساب، وفقره مع كثرة ماله، وضعفه وقِلَّته مع رياسته وشرفه لهلاك سلطانه، علَّل كلّ ذلك بقوله عزَّ سلطانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾[الحاقة].

❁ الوجه السادس: التعظيم بالأعظمية

وهذا وجهٌ لطيفٌ يرسّخ القرآن به تعظيم الله تعالىٰ في القلوب والعقول، فيزداد القلب محبة لله، والعقل شهودًا لعلوه رفيع الدرجات، وكلاهما مشاهدة لعظمة أفعاله، والارتباط بعظمة أقواله، ترتيلًا وتلاوة واتباعًا وتخلقًا وسلوكًا.

فالتعظيم كما قال (صاحب المنازل): «معرفة العظمة مع التَّذلُّل لها»[1]. فعظمة الله دالَّة عليها عظمة أفعاله، وشاهدة لها عظمة أقواله، وعارضة لها علىٰ العالمين عظمة مخلوقاته، ومظهرة لآثارها ما يناله عباده من هباته وعطاياه، ومؤكدة عليها أخباره وقضاؤه.

ولذلك؛ فإنّ معرفة العظمة في خلقه وفعله وكلامه وآثاره؛ تسوقنا بسلاسل اليقين إلىٰ مراقي التعظيم لله تعالىٰ.

- فكلامه أعظم الكلام، فدلَّتنا هذه الأعظمية إلىٰ تعظيمه تعالىٰ، وقد وصف القرآنُ كلام الله بالعظمة فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾[الحِجر]؟، فالذي آتىٰ القرآن العظيم هو العظيم، فتضمنت أعظمية القرآن تعظيم منزِله ومؤتيه.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٤٩٦).

- وأعظم مخلوقاته دالٌّ علىٰ أنَّه الخالق العظيم، وإضافته إليه، ومدح ذاته بكونه الرَّبّ لهذا الخلق العظيم من أَوْجَهِ الوجوه علىٰ تعظيمه -تعالىٰ- بأعظمية هذا المخلوق، وقد قال تعالىٰ: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٩]، وقال: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦﴾[المؤمنون]، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٦﴾[النمل]. فإنّ الله تعالىٰ خلق العرش، وهو أعلىٰ مخلوقاته وأعظمها كما جاء في كتاب العرش وما روي فيه: «**هو أعلىٰ المخلوقات وأعظمها، وسقفها، وهو كالقبة علىٰ العالم، وما تحته بالنسبة إليه كحلقة في فلاة**»(١). وقال ابن أبي زمنين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن قول أهل السُّنَّة: أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- خلق العرش، واختصّه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق»(٢).
- وكذلك أعظمية هباته وعطاياه دالّة علىٰ وجوب تعظيم تعالىٰ، فما يُنال منه تعالىٰ لا شك فضلٌ عظيم وقد وصف عطاياه ووهبْه كلها بالعظيمة، سواءٌ أكان ذلك خير الدنيا أو الرحمة الدنيوية، أو الهداية الدينية، أو المغفرة الأخروية للذنوب وتكفير السيئات، أو إعداد الجِنان للمؤمنين، ثم نسبة ذلك إليه تعالىٰ الربِّ العظيم، بادٍ فيه وجه التعظيم للمولىٰ الكريم جل وعلا، وقد جاء في (البقرة: ١٠٥، وآل عمران: ٧٤، والأنفال: ٢٩، والحديد: ٢١، والجمعة: ٤) ذلك بقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.
- وأيضًا أعظمية ما يناله المؤمن الصَّالح الموفّق من رضا الله، ورضوانه، والمساكن الطيبة في جنات عدن، والنجاة من سواء الجحيم، وولاية الله المبشرة في الدارين بنفي الحزن والعصمة من الخوف، وسَعي نور المؤمنين والمؤمنات بين أيديهم في الجنات بشرىٰ لهم، ووقاية السَّيِّئات وعذاب الجحيم!! كلّ هذا النَّوال والجزاء والمنّ الكرم والإحسان؛ لا شكَّ أنَّ من يناله من المؤمنين الصَّالحين فائزٌ أعظم فوز، ومن أنالهم بفضل منه وإحسان من غير إلزام عليه لا ريب هو العظيم! فإنَّه تعالىٰ بعد كلّ هذا النَّوال والجزاء والمنّ والإحسان والكرم يشير إلىٰ أنَّه الفوز العظيم، واتفقت كل المواد بالإشارة إليه بذلك المشيرة إلىٰ بُعد عظمة هذا الفوز ورفعته وعلّوه

(١) العرش وما روي فيه، لأبي جعفر ابن أبي شيبة (٣٤).
(٢) أصول السنة، لابن أبي زمنين (٢٨٢)، عن العرش وما روي فيه (٣٤).

وكماله وتفرّده، ولقد جاءت جميعها بقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾[1]. فإذا نُسب هذا الفوز العظيم إلىٰ نواله تعالىٰ؛ فقد كفىٰ دلالة وحُجّة علىٰ وجوب تعظيمه من هذا الوجه.

وهذا المقصود بتعظيم الله تعالىٰ بالأعظمية، رزقنا الله القرآن علمًا وتدبرًا وفهمًا.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) راجع: (سورة النساء: ١٣، والمائدة: ١١٩، والتوبة: ٧٢، ٨٩، ١٠٠، ١١١، يونس: ٦٤، الصافات: ٦٠، غافر: ٩، الدخان: ٥٧، الحديد: ١٢، الصف: ١٢، التغابن: ٩).

المبحث الثالث: التدبّر ومظاهر تعظيم الله تعالى

عرفنا أنّ المقصود الأعظم من إنزال القرآن وحكمتَه البالغة؛ هو تدبّرُه لتحصيل البركة القرآنية علىٰ النفس والقلب والخلق دينًا ودنيا.

ولكن أعلىٰ مقاصد التدبّر وأصدق حِكَمِه وأغلاها: تحصيل معرفة الله تعالىٰ المستلزِمِ تعظيمه وتوقيره حقّ توقيره سبحانه، وتقديره حقّ قدره جلّ وعلا، حتىٰ يخرج المتدبّر من طوائف الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[الأنعام: ٩١]، وحتّىٰ لا يكون مع الذين قال فيهم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾[نوح].

فتحقيق تعظيم الله تعالىٰ هو المقصود الأكبر للتدبّر الذي هو المقصود الأعظم من إنزال الكتاب الكريم. فكلما توجّه التدبّر إلىٰ تحقيق هذا المقصود وتحصيله؛ فذاك هو الأَوْلىٰ بالمتدبّرين، وكتاب الله الكريم مليءٌ بآيات التعظيم وأساليب التعظيم وأدلة التعظيم ومعاني الإجلال والإكبار للربّ العظيم جلّ وعلا.

وهنا أستلّ بعض الآيات والدلالات الظاهرة التي أجرَىٰ فيها الموفّقون تدبّراتهم تحقيقًا لتعظيم الله وتحصيلًا لما يجلّه تعالىٰ وهو الجليل الذي جلّ وعلا سبحانه. ولضيق المجال أكتفي بفقرات تسعٍ أُمثّل لما يمكن أن يجري من تدبّر التعظيم في مجالات متعددة، سائلًا العظيم الجليل أنْ يوفّق ويسدد، وما التوفيق إلا بالله العليّ العظيم.

أولًا: تدبّر التعظيم في الأسماء والصفات

ومن ذلك: ما تنبَّه له وبسطه الشيخ السِّعدي -رحمة الله عليه- في مراعاة لوازم المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يصرِّح اللَّفظ بذكرها، مستشهدًا لذلك بتدبر معاني الرَّحمن الرَّحيم من قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾، قال: «ومنها: ما في أسمائه الحُسنىٰ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ فإنها تدلّ بلفظها علىٰ وصفه بالرحمة، وسعة رحمته، فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة أحد هي وصفه الثابت؛ وأنه أوصل رحمته إلىٰ كل مخلوق؛ ولم يَخْلُ أحدٌ من رحمته طرفة عين؛ عرفت أنّ هذا الوصف يدلّ علىٰ كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقف الرحمة علىٰ ذلك كله، ثم استدللت بسعة رحمته علىٰ أنّ شرعه نورٌ ورحمة، ولهذا يعلل تعالىٰ كثيرًا من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه، لأنها من مقتضاه وأثره»[1].

---

(١) القواعد الحسان (٣٤ – ٣٥) القاعدة الحادية عشرة.

ومن مظاهر التَّعظيم بالتَّدبُّر في معاني الأسماء والصِّفات: تدبّر اجتماع الحيّ بالقيُّوم في (آية الكرسي: ٢٥٥) من قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾، وفي (آل عمران: ٢-٣) من قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، وفي (طه) من قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ۝١١١﴾، وفي أدعية النَّبيِّ ﷺ كدعائه عليه الصلاة والسلام: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»[(١)].

فتدبّر الرّازيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الاجتماع في تفسيره قائلًا: «فإنْ قيل: الحيُّ معناه: الدرّاك الفعّال، أو الذي لا يمتنع أن يعلم ويقدر، وهذا القدر ليس فيه مدحٌ عظيمٌ؛ فما السَّبب في أنّ ذكره الله -تعالىٰ- في معرض المدح العظيم؟ فالجواب: أنَّ التَّمدّح لم يحصل بمجرد كونه حيًّا، بل بمجموع كونه حيًّا قيّومًا، وذلك؛ لأنَّ القيُّوم هو القائم بإصلاح حال كلّ ما سواه، وذلك لا يتمّ إلَّا بالعلم التَّامّ، والقدرة التَّامّة، والحيُّ هو الدَّرَّاك الفعَّال، فقوله: ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ يعني كونه درّاكًا فعّالًا، وقوله: ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ يعني كونه درّاكًا لجميع الممكنات، فعَّالًا لجميع المحدثات والممكنات، فحصل المدح من هذا الوجه»[(٢)].

ومن جميل التدبّر في أسماء الله تعالىٰ وصفاته: ما استخرجه الإمام المحقِّق ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ من لازم معنىٰ اسم (القيّوم) وآثاره علىٰ من أحبّ الله وتولَّاه، فقال: «فإنَّه سبحانه القيُّوم المقيمُ لكلِّ شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيّوميته بمن أحبّه وتولَّاه، وآثره علىٰ مَن سواه، ورضي به من دون النَّاس حبيبًا وربًّا ووكيلًا وناصرًا ومُعينًا وهاديًا، فلو كشف الغطاء عن ألطافه وبرِّه وصنعه له، من حيثُ يعلم ومن حيثُ لا يعلم؛ لذَابَ قلبُه محبَّةً له، وشوقًا إليه، ويَقَعُ شكرًا له»[(٣)].

ثانيًا: تدبّر التعظيم بتنزيه الله عن التخليط

ومن ذلك: تدبّر التَّعظيم بتنزيه الله تعالىٰ عن التَّخليط أبدًا جلَّ وعلا، وذلك كما تنبّه إليه ابنُ هبيرة رَحِمَهُ اللَّهُ، وتدبّره من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ۝١١٠﴾[الأنبياء]، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾[الأعلىٰ: ٧].

---

(١) أخرجه التّرمذي (٣٧٧٣)، وحسَّنه الألباني.

(٢) تفسير الرّازي (١/ ١١٤-١١٥).

(٣) طريق الهجرتين (١/ ٢٨١). وانظر: ولله الأسماء الحسنىٰ (١٦٣).

فربُّ العِزَّة يخبر عن صفةٍ لا تخلو عن كثير من خلقه من البشر وغيرهم، وهو العلم بالجهر من القول، فكلّ سامعٍ لا يخفىٰ عليه القول المجهور، وإنَّما يخفىٰ علىٰ السَّامعين ما كُتم من القول وما أَسَرَّ به قائله، وما أخفاه في صدره من كلام النّفس.

فبماذا يتعاظم ربُّنا بعلمه الجهرَ من القول، ولم ينفرد به جلَّ جلاله؟

فنجد الجوابَ في تدبّر ابن هبيرة وتفهُّمه -رحمة الله عليه- وهو يقول: «المعنىٰ: أنَّه إذا اشتدّت الأصوات وتغالبت؛ فإنّها حالةٌ لا يسمع فيها الإنسان، والله -عزَّ وجلَّ- يسمع كلام كلّ شخصٍ بعينه، ولا يشغله سمع عن سمع»[(١)].

وهو تدبّرٌ رائعٌ بديعٌ موفّق، نزَّه به الله تبارك وتعالىٰ عن كلِّ نقيصة عن التخليط في الأصوات، والاندهاش عند اشتدادها، وحين تعاليها بتكاثر المتكلمين، وتداخل كلامهم وكلماتهم. فسبحان سامع أصوات الخلائق كلّها في آن واحد، فلا يغفل عن صوتٍ، ولا يُشغل عن سمع، مع اختلاف اللُّغات والنَّبرات والألسن والأشخاص والأماكن والبلدان، فهو السَّميع العليم الذي لا يخفىٰ عنده شيء، وكلّ ذلك لسمعه وعلمه سواء، الجهر والخفوت، والنطق والسكوت، سبحانه سبحانه.

وقد مُدح الله العظيم بهذه الصِّفة علىٰ ألسن الصَّالحين في دعائهم وابتهالهم، فكان من دعائهم: «يا مَن لا يشغله شأنٌ عن شأن، **ولا يشغله سمعٌ عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات**، ويا من لا تُغَلِّطه المسائل، ولا تختلف عليه اللغات»[(٢)]..

وممَّا يرويه ابن أبي الدُّنيا والتَّنوخي -رحمهما الله- في كتابيهما (الفرج بعد الشِّدَّة) بسنديهما إلىٰ أبي سعيد البقّال في حبس الحجَّاج له وإبراهيم التَّيمي وجماعة رحمهم الله، قال: «إذا نحن برجل قد دخل علينا السِّجن، فقلنا: يا عبد الله، ما قصتك؟ وما أمرك؟ قال: لا والله ما أدري، ولكنِّي أظنُّ أنِّي أُخذت في رأي الخوارج، فيا لله إنَّه لرأيٌ ما رأيته، ولا هَوِيتُه، ولا أحببته، ولا أحببتُ أهلَه. يا هؤلاء، ادعوا لي بوضوء. قال: فدعونا له بماء فتوضأ، ثم قام فصلَّي أربع ركعات، فقال: «اللَّهم، إنَّك تعلم -علىٰ إساءتي وظلمي وإسرافي- أنِّي لم أجعل لك ولدًا ولا نِدًّا ولا صاحبةً ولا كفؤًا، فإنْ تعذب فعبدك، وإنْ تغفر

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٤٥)، نقله في القواعد والأصول وتطبيقات التدبر (٦١).

(٢) انظر: عوارف المعارف للسهروردي (١/ ٣٦٣)، علىٰ ما فيه ممّا قيل فيه.

فإنَّك أنتَ العزيز الحكيم. اللَّهم، إنِّي أسألك يا مَن **لا تُغَلِّطه المسائل، ويا من لا يشغله سمعٌ عن سمع**، ويا مَن لا يُبرمه إلحاح الملحِّين= أن تجعل لي في ساعتي هذه فرجًا ومخرجًا، من حيثُ أحتسب ومن حيثُ لا أحتسب، ومن حيثُ أعلم ومن حيثُ لا أعلم، ومن حيثُ أرجو ومن حيثُ لا أرجو، وخذ لي بقلب عبدك الحجَّاج وسمعَه وبصرَه ولسانَه ويدَه ورِجلَه، حتىٰ تخرجني في ساعتي هذه، فإنَّ قلبَه وناصيتَه في يدك، أي ربِّ، أي ربِّ، أي ربِّ. فأكثر، قال: فوالله الذي لا إله غيره؛ ما قطع دعاءَه إذ ضُرِب بَابُ السِّجن: أين فلان؟ فقام صاحبنا، فقال: «يا هؤلاء، إن تكنِ العافية، فوالله لا أدع الدُّعاء، وإن تكن الأخرىٰ فجمع الله بيننا وبينكم في رحمته»، فبلغنا من غد أنَّه خُلِّي عنه[(١)].

ولقد عجبتْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في أمر المجادِلة تحمد ربّها السَّميع العليم، فتقول: الحمد لله الذي **وَسِع سمعُه الأصوات**، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلىٰ رسول الله ﷺ، وإنِّي ليخفىٰ عليَّ بعضُ كلامها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة][(٢)].

وجعله الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ من دعاء الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا مَن لا يشغله شأنٌ عن شأن، ولا سمعٌ عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات. يا من لا تُغَلِّطه المسائل، ولا تختلف عليه اللُّغات، يا مَن لا يبرمه إلحاح الملحين، ولا تضجره مسألة السَّائلين؛ أذِقْنا بردَ عفوك، وحلاوة مناجاتك»[(٣)].

وجعلوه في (موسوعة نضرة النَّعيم) مرفوعًا من أدعية رسول الله ﷺ[(٤)].

والدُّعاء به والابتهال بجمَله وألفاظه صحيحٌ في ذاته، بل فيه تعظيمٌ للرَّبِّ، وامتداحٌ له، وثناءٌ عليه، فلا أثر لصحة روايةٍ في الدُّعاء به أو ضعفها، لأنَّ الدعاء إنْ صحّ في ألفاظه ودلالته؛ جاز الدُّعاء وصحَّ، وإنْ لم يكن مسندًا أو مأثورًا.

---

(١) الفرج بعد الشَّدّة لابن أبي الدنيا (٦٠)، والفرج بعد الشِّدَّة لأبي عليٍّ التَّنوخي (٤٢). وقد روىٰ أبو القاسم الأصبهاني في (قوام السَّنَّة: ١٢٦٨)، وأبو عبد الله الفاكهي في (أخبار مكة: ١٥٢٤)، وأبو بكر الدِّينوريُّ في (المجالسة وجواهر العلم: ١٠٢)، عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه سمعه من رجل متعلِّق بأستار الكعبة، وأقرَّه عليه. وقد أوهىٰ إسناده محقِّقه أبو عبيدة آل سلمان (١/ ٤٠٢).

(٢) فقه الأدعية والأذكار لعبد الرَّزاق البدر (٢٤٥).

(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي (١/ ٢٥٥).

(٤) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٦/ ٢٣٠٣).

ثالثًا: تدبر التعظيم بنفي الندّ من الله تعالى

وجَعْلُ الندّ لله الواحد الأحد؛ من دلائل التَّنقيص له سبحانه، والتَّنقيص من نواقض التَّعظيم، ولذلك نهىٰ الله المؤمنين به عن ذلك، حتىٰ لا يقعوا فيما وقع فيه الضَّالُّون المُضِلُّون لأقوامهم عن سبيل الله، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٢].

فجَعْلُ الندِّ لله تعالىٰ وقوعٌ في الشِّرك والضَّلال الكبير؛ ولو كان مَنْ جَعَل له الندّ قد سلّم له تعالىٰ أنَّه جاعلٌ الأرض فراشًا!! ولو سلَّم له أنَّه تعالىٰ هو بَانِي السَّماء بغير عمد!! ولو سلّم له تعالىٰ أنَّه هو الذي أنزل من السَّماء مَا أخْرجَ به النَّاسُ الثَّمرات رزقًا لهم ولأهليهم وعيالهم وأنعامهم، وهذا هو تدبّر قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة].

فجَعْلُ الندِّ لله تعالىٰ ضلالٌ عن سبيل الاستقامة والعبودية الحقّة لله في الدنيا، وضلالٌ عن سبيل الجنة في الآخرة، وهو تبديلٌ لنِعَمِ الله كفرًا، وإحلالٌ للأَتْبَاع من أقوامهم دور البوار، وسَوْقٌ لهؤلاء القطيع الضال المُضَل إلىٰ جهنم والنار يصلونها وبئس القرار، تمام قوله عزّ وجل: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾[إبراهيم].

- فما هي هذه الأنداد التي ننزّه الله عز وجل عنها تعظيمًا له سبحانه وتنزيهًا؟
- هل هي الأصنام التي كانوا يعبدونها في الجاهلية فجاء الإسلام فهدمها واحدًا واحدًا؟
- أم هي الأرباب التي اتُّخِذتْ وعُبدتْ من دون الله فيستغاث بها بأنواع الاستغاثات، ويتزلّف إليها بأنواع التزلّفات؟
- أم هي الطواغيت التي كانوا يتخذونهم من دون الله يتبعونهم ويأتمرون لها كما يأتمر المؤمنون بربهم؟
- أم هي كل ما يمكن أن يُطاع كما يطاع الله؛ ويُسمع له كما يُسمع لله؛ ويُسجد له كما يُسجد لله؛ ويُتذلل لها ويُنكسر لمقامه كما يُتذلل ويُنكسر لجنابه جل وعلا؟
- فما المقصود والمراد بالأنداد في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟

وفي الجواب يقال: لعلّ كلّ ما ذُكر من الأرباب والطّواغيت والأصنام، وما جُعل كالله في الطاعة والعبادة والافتقار والتذلل والانكسار ونحوها؛ داخلةٌ في المقصود من الآية، ليكون المعنىٰ المراد -والله أعلم-: فلا تجعلوا لله أندادًا، لا صنمًا، ولا شيطانًا، ولا طاغوتًا، ولا النفس، ولا الهوىٰ، فتضلوا عن سبيل الله[(١)].

وقد نُقل عن تدبّر سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ الأنداد في هذه الآية أنَّه قال: «وأكبر الأنداد؛ النفس الأمَّارة بالسُّوء الطوَّاعة إلىٰ حظوظها ومَهْنَئها بغير هدًىٰ من الله»[(٢)].

وما أبعد النُّجعة سهلٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنْ حصرها فيها، فإنَّ النَّفس الأمَّارة بالسُّوء المطاعة في أوامرها بالسُّوء ندٌّ معتبر، ولكن الطَّاغوت أطوع، والشَّيطان أخدع، والهوىٰ أقنع، والصَّنم أصرح وأشنع، فلن يحقّق المؤمن بالله **تعظيم ربِّه** -جلَّ وعلا- ما لم يدفع هذه الأنداد عن مشاركة الله في الطاعة والاتِّبَاع.

وقد أيَّد الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تدبّر سَهْلٍ التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ أنَّ النّفس ندٌّ في الاعتبار الشَّرعيِّ الذي شهد له القرآن من جهتين:

إحداهما: أنَّ النَّاظر قد يأخذ من معنىٰ الآية معنًىٰ من باب الاعتبار؛ فيجريه فيما لم تنزل فيه، لأنَّه يجامعه في القصد أو يقاربه؛ لأنَّ حقيقة النِّدِّ أنَّه المضادّ لندِّه الجاري علىٰ مناقضته، والنَّفس الأمَّارة هذا شأنها؛ لأنّها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها لاهيةً أو صادَّةً عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا هو الذي يعني به النِّدّ في ندِّه؛ لأنَّ الأصنام نصَّبوها لهذا المعنىٰ بعينه، وشاهد صحة هذا الاعتبار قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣١]، وهم لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم ائتمروا بأوامرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان؛ فما حرموا عليه حرموه، وما أباحوا لهم حللوه؛ فقال الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣١]، وهذا شأن المتّبع لهوىٰ نفسه.

والثانية: أنَّ الآية وإن نزلت في أهل الأصنام؛ فإنَّ لأهل الإسلام فيها نظرًا بالنسبة إليهم، ألا ترىٰ أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال لبعض من توسّع في الدُّنيا من أهل الإيمان: «أين تذهب بكم هذه الآية: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾[الأحقاف: ٢٠]؟»، وكان هو يعتبر نفسه بها، وإنّما أنزلت في الكفَّار لقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٠].

---

(١) راجع: الموافقات (٤/ ٨٠٦).

(٢) انظر: الموافقات (٤/ ٨٠٦)، وقد عزاه المحقّق إلىٰ تفسير سهل التستري (٢/ ٢٢).

فإذا كان كذلك؛ صحَّ التَّنزيل بالنسبة إلىٰ النَّفس الأمَّارة في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٢]، والله أعلم[(١)].

رابعًا: تدبّر التعظيم بخواتيم الآيات

فإنَّ الله -تعالىٰ، عزَّ قوله وتبارك- وضع الموازين القسط في خطابه البليغ بلاغًا للناس حتىٰ يعلموا الحقّ، ويعرفوا الرَّبَّ فيعبدوه حقَّ العبادة.

ولذلك؛ فإنَّ أخبارَه -تعالىٰ- وأفعاله وأحكامه في آياته البيِّنات تتناسب للدَّلالة علىٰ صفاته العليّة الدَّالَّة علىٰ صدقه في خبره، وقدرته في فعله، وصحة أمره ونهيه في أحكامه.

ولمَّا كان الأمر كذلك؛ فإنَّ خواتيم آياته الخبرية والطلبية والعلمية والعملية؛ دالَّة علىٰ قدرته وصدقه وحكمته الدَّالّة جميعًا علىٰ عظمته.

ولهذا؛ نجد من فهم عن الله قوله، ومن كان له قلبٌ وألقىٰ السَّمع وهو شهيد؛ يتنبّه لخواتيم الآيات متدبِّرًا لها تعظيمًا لله العليِّ العظيم.

ومثال ذلك: ما ذكره الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الكشاف): أنَّ قارئًا قرأ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ (غَفُورٌ رَحِيمٌ)، وصحيح الآية: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾[البقرة: ٢٠٩]. فسمعه أعرابيٌّ فأنكره وهو لم يقرأ القرآن، وقال: إنْ كان هذا كلام الله؛ فلا يقول كذا الحكيم! لا يذكر الغُفران عند الزَّلل؛ لأنَّه إغراءٌ عليه[(٢)].

خامسًا: تدبّر التعظيم بنفي العبثية عن الحقِّ سبحانه

والحقُّ -جلَّ وعلا- لا يتصوَّر أهل الإيمان في شأنه لعبًا ولا لهوًا ولا عبثًا في شيء من فعله أو خلقه أو حُكْمه، إلَّا مخبولًا أبعده الضَّلال عن تقدير الله -حقَّ تقديره- وأغواه الكفران عن رجاء الوقار لمولاه وخالقه وباريه سبحانه، ولذلك ساق الله آياتٍ للتَّنبيه والتَّنزيه، التنبيه لعباده، والتَّنزيه لمعبودهم عن العبثية واللهوية واللعبية، فقال نافيًا عن نفسه اللَّهو واللَّعب: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا

---

(١) الموافقات (٤/ ٨٠٧، ٨٠٩).

(٢) الكشاف للزمخشري (١/ ١١٥).

﴿نَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[الأنبياء]. وقال علىٰ سبيل النَّفي والإثبات وهو من أوضح الدَّلالات وأقطعها علىٰ المعنىٰ المطلوب، فنفىٰ كونه لاعبًا عابثًا، وأثبت كونه بالحقِّ يفعل ويخلق، فقال عزَّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[الدخان].

وحاشاه ربُّنا -تبارك وتعالىٰ- أن يعبث في فعله وبفعله، وإلا لكان في قوله العبثُ، وفي خلقه العبث، وفي أوامره العبثُ، وفي نواهيه العبثُ، وفي إماتته للخلق عبثٌ، وفي البعث لهم عبثٌ، وهذا العابث لا يصلح أن يكون ربًّا يأمر وينهي ويسأل ويحاسب ويعاقب؛ لأنَّ العابث يميل إلىٰ العابثين ويحبّ العابثين ويلهو مع اللَّاهين، ويلعب مع اللَّاعبين، ثمّ لا شكَّ سيكون في صفّ العابثين ولن يحاسب أو يعاقب لاعبًا لاهيًا لأنَّه بذاك يدين نفسه.

وهذا ما صوَّره اليهود في الله واعتقدوه، فجاء في (تلمودهم): «النَّهار اثنتا عشرة ساعة: في الثلاثة الأولىٰ منها يجلس ويطالع الشَّريعة، وفي الثَّلاثة الثَّانية يحكم، وفي الثَّلاثة الثَّالثة يطعم العالم، وفي الثَّلاثة الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك». ويضيفون أنَّ: «الله لم يلعب مع الحوت بعد هدم الهيكل، ولم يَمِلْ بعدم هدم الهيكل إلىٰ الرَّقص مع حواء بعد ما زيَّنها بملابسها، وعقص لها شعرها» تعالىٰ الله عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا.

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾[المؤمنون]: «العبثُ اللهو، واللَّعِبُ والاشتغالُ بما يُلْهِي عن الحقِّ، والله لم يأمر العبادَ بذلك، ولم يَدْعهُم إلىٰ ذلك، ولم يندبهم إليه. والعابثُ في فِعْلِهِ مَنْ فِعْلُه علىٰ غير حدِّ الاستقامة، ويكون هازلًا مُسْتَجْلِبًا بفعله أحكامَ اللهوِ إلىٰ نَفْسه، متماديًا في سهوه، مستلِذَّ التفرقةِ في قصده، وكلُّ هذا من صفات ذوي البشرية، والحقُّ سبحانه مُنَزّهُ النّعَتِ عن هذه الجملة، فلا هو بفعل شيءٍ عابث، ولا بشيء منَ العَبَثَ آمِرٌ»[1].

سادسًا: تدبّر التعظيم بالأقسام والأيمان

ومن ذلك: أنّ الله تعالىٰ يقسم أقسامًا فيتنبّه السامع والقارئ عظمة هذا القسم وعظمة

(١) تفسير القشيري (٥/ ٢٩٦).

المُقْسم جلّ وعلا، ولما قُرِئ قول الله تعالىٰ ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ. فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾[الذاريات: ٢٢-٢٣]؛ رُوي أنّ بعض الأعراب الفصحاء سمعها تُتلَىٰ، فقال: «من أحوج الكريم إلىٰ أن يحلف؟»[(١)].

وكأنَّ القسم العظيم من الرَّبِّ العظيم ربِّ السَّماء والأرض حين شكَّ بعضُ خلقه من كمال ربوبيته في الإرزاق، وأنَّ أرزاقهم مضمونة مأمونة موفورة بعيدًا عن أيدي الخلق؛ إذ إنّها في السَّماء لا الأرض، فلم يصدِّقوا الجليلَ الرَّزاق الكريم، فأقسم العظيمُ بهذا القسم العظيم، لتصديقه في وعده ولتعظيم الوعد الحقِّ، ووعده الحقُّ -جلَّ جلاله- وهو أحكم الحاكمين.

سابعًا: تدبّر التعظيم لآيات اللقاء الأخروي

والمتدبّر الحيّ حين يتلو آيات اللِّقاء الأخرويّ، أو تُتْلَىٰ عليه= ترتعد منه الفرائص، وتكاد أضلاعه تنقلع، ويرىٰ السَّماء فوقه كأنها تتفطّر، والأرض تحته تنشق، فيخرّ هدًّا من هول ما يتصوّر من حاله، ومن عظمة الموقف بين يدي ربِّه الجبَّار المنتقم، تعظيمًا للموقف ورهبةً من سؤال العظيم، وحساب العظيم، ونقاش العظيم جلَّ جلاله.

يتصوّر لقاء الله وحسابه، وما قد يظهر من فضائح عبوديته الآبقة وأفعاله البائقة، فيلفَىٰ نفسه تردّد: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾[الصافات].

ورضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؛ فقد رُويَ عنه أنَّه خرج يَعِسّ المدينة ذات ليلة، فَمَرّ بدار رجلٍ من المسلمين، فوافقه قائمًا يصلِّي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾[الطور]، فقال: «قسمٌ -وربِّ الكعبة- حقٌّ». فنزل عن حماره واستند إلىٰ حائط، فمكث مليًّا، ثم رجع إلىٰ منزله، فمكث شهرًا يعوده الناس، لا يدرون ما مرضه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾، فربا لها ربوةً، عِيْدَ منها عشرين يومًا[(٣)].

---

(١) المحرر الوجيز (٦/ ٢٠١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٣٠).

(٣) فضائل القرآن (٦٤)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٤٣٠).

ولقد عاب ربُّ العِزَّة علىٰ من استخفَّ بلقائه سبحانه تكذيبًا له -تعالىٰ- وجدلًا لنبيِّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾[مريم]، فقال الحسن بن الفضيل: «لو قالوا هذه المقالة تعظيمًا لله وإجلالًا له ومعرفةً بحقِّه وبما يقولون؛ لما عابهم بذلك، ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيبًا وجدلًا، من غير معرفة بالله وبما يقولون»[1].

ثامنًا: تدبّر التعظيم بالتنبّه لعظمة الله الخالق

ومن جميل التَّدبُّر القائد إلىٰ تعظيم الباري سبحانه: التَّنبُّه إلىٰ عظيم خلقه، وجميل ما برأ، وحسن ما صوَّر -جلَّ وعلا- الخالق البارئ المصوِّر.

ولقد بادرت قلوبُ صحبِ مَن أُنزل علىٰ قلبه التَّنزيل -رضوان الله عليهم- إلىٰ التَّنبُّه لعظمة الخالق -جلَّ وعلا- والتَّدبُّر لآياته التي أخبر فيها بخلقه الخلق، ومراحل ذلك الخلق، وما صوَّر وما برا، فسبقت ألسنتهم تعبِّر عن قلوبهم، تستكمل الآيات، توافق الحقّ فيوافقهم الحقّ، لتأتي الآيةُ بما تدبروه وما تنبهوا له.

فإنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا أنزل الله تعالىٰ آيات (المؤمنون)، فسمع قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، فقال عمر رضي الله عنه: «تبارك الله أحسن الخالقين»، فأنزل الله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[2].

وفي مسند الطيالسي عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ونزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾، فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «تبارك الله أحسن الخالقين»، فأنزل الله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ الآية، فلما نزلت؛ قلتُ أنا: تبارك الله أحسن الخالقين. فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[3].

وعند الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أملَىٰ عليَّ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا

(١) تفسير القاسمي (٤/ ٥١٨).
(٢) المعجم الكبير (١٢٠٧٨).
(٣) مسند الطيالسي (٤١).

﴿ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، فقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فتبارك الله أحسن الخالقين. فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: مِمَّ ضحكتَ يا رسول الله؟ قال: بِها خُتمتْ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾»[1].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (تفسيره): «ورُوِيَ أنَّ قائل ذلك عبد الله بن أبي سرح»[2].

رضي الله تعالىٰ عنهم؛ اتَّقدتْ بصائرُهم بصحبة معلِّم البشرية، واستنارتْ قلوبُهم بمحبته ونصرته، وتفتَّقتْ أذهانهم بالاستماع إليه، وتضلّعتْ فهومُهم من موائد النُّبوة، فَبَادَروا بالتَّدبُّر الدَّقيق والتَّفهُّم العميق.

اللَّهم، ارزقنا محبَّتهم واتِّباعهم بإحسانٍ، علمًا وفهمًا وخُلقًا وسلوكًا.

ثامنًا: تدبّر التعظيم بتوحيد الطاعة وتوجيه العبادة

توجيه الطَّاعة والعبادة للرَّبِّ تبارك وتعالىٰ لا يكون إلَّا تعظيمًا له جلَّ وعلا، لأنّ الطاعة والعبادة استسلامٌ لا يحتمل غيره، ولا يستسلم النَّاس إلَّا لكبير متعال أو لقويٍّ ذي طَوْل أو لعظيم مرغوبٍ مرهوبٍ ذي جلال.

فإنْ كان توجيه الطاعة والعبادة بتجريد وتوحيدٍ؛ فقد تحقّق التعظيم الكامل والتوقير الشَّامل للرَّبّ المستحقّ للعبادة المفضي إلىٰ الشَّرف الباذخ والمقام الفاخر، وكما قيل:

ومـمـا زادني شـــرفـا وتِـيـه ها ... كِـدتُ بـأُخـمصـــي أَطَـأُ الـثـريّـا

دخولي تحـت قولـك يـا عبـادي ... وأنْ صـــيّـرتَ أحـمـد لـي نـبـيّـا

إذ العبادة في معناها ومدلولها: التّعظيم للمعبود، فالعبادة: فعل المكلَّف علىٰ خلاف هوىٰ نفسه تعظيمًا لربّه. وقيل: هي تعظيم الله تعالىٰ وامتثال أوامره[3].

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٤٦٥٧)، وقال في (٥/ ٥٦): «لا يُروَىٰ هذا الحديثُ عن زيد بن الحارث إلَّا بهذا الإسناد، تفرَّد به آدمُ». وقال الهيثميُّ في (مجمع الزوائد ٦ / ٤٤٨): «وفيه جابر الجعفيّ، وهو ضعيفٌ، وقد وُثِّق، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ١١٠).

(٣) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف (١/ ٤٩٨).

وهذا هو الذي فهمه أبو عبد الله المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين تدبَّر قولَ الله تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، فقال في (تعظيم قدر الصلاة): «جميع أعمال الصَّلاة توحيدٌ لله وتعظيم له. فلا عملَ بعد توحيد الله أفضل من الصَّلاة لله؛ لأنَّه افتتحها بالتَّوحيد والتَّعظيم لله بالتَّكبير، ثمَّ الثَّناء علىٰ الله، وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمدٌ لله وثناءٌ عليه وتمجيدٌ له ودعاء، وكذلك التَّسبيح في الرُّكوع والسُّجود، والتَّكبيرات عند كلِّ خفض ورفع، كلُّ ذلك توحيدٌ لله وتعظيمٌ له، وختمها بالشَّهادة له بالتَّوحيد، ولرسوله بالرِّسالة، وركوعها وسجودها خشوعًا له وتواضعًا، ورفع اليدين عند الافتتاح والرُّكوع، ورفع الرأس تعظيمًا لله وإجلالًا له، ووضع اليمين علىٰ الشِّمال بالانتصاب لله تذلُّلًا له وإذعانًا بالعبودية»[(١)].

وكلُّ ما في الصَّلاة من عبادة قولية وفعلية تعظيمٌ لله جلَّ وعلا.

ففي الصَّلاة: التَّسبيح، والتسبيح هو تعظيمٌ الله وتبرئته من السُّوء.

وفي الصَّلاة التَّكبير (الله أكبر)، ويراد به التعظيم والإجلال، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه إثباتُ تعظيمه، وهو أكمل من قول: الله أعظم. فلمّا كان التكبير أبلغ من التَّعظيم صرَّح بلفظه، وتضمَّن ذلك التَّعظيم، ولهذا كان شعائر الصَّلاة والأذان والأعياد= هو التَّكبير[(٢)].

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، قال الشَّيخ الشَّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: عظِّمه تعظيمًا شديدًا، ويظهر تعظيم الله في شِدَّة المحافظة علىٰ امتثال أمره، واجتناب نهيه، والمسارعة إلىٰ كل ما يرضيه»[(٣)].

وفي الصَّلاة: التَّهليل؛ والتَّهليل يمنع أن يُعبَد غيرُه، أو يُرجَىٰ أو يُخَاف أو يُدعَىٰ، وذلك يتضمن أنَّه أكبر من كلِّ شيء، وأنَّه مستحقٌّ لصفات الكمال التي لا يستحقّها غيرُه[(٤)].

وفي الصَّلاة: الرُّكوع، والرُّكوع فيه الدَّلالة الجليّة علىٰ تعظيم الله تعالىٰ، وذلك أنَّ أرفع مقامات الذِّلَّة والانكسار وإظهار المذلَّة والافتقار أن يطأطئ العبد رأسه بين يدي معبوده

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢٦٨).
(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٥/ ٢٣١).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٩٠).
(٤) جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٢٧٦).

الأعظم جل وعلا، فكان من أعظم الدَّلالات علىٰ تعظيم ربِّ البريَّات، وقد جاء في (الصَّحيح) من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فأمَّا الرُّكوع فعظِّموا فيه الرَّبّ»[(١)].

وفي الصَّلاة: السُّجود، وهو من أدلِّ الأفعال المعبّرة علىٰ تعظيم الله عزَّ وجلَّ؛ إذ يخرُّ للأذقان يُعَفِّر وجهه في التُّراب في ذِلَّة وانكسار لجناب ربِّه، مستجيرًا به منيبًا إليه، ولهذا؛ كان النَّبيُّ ﷺ يربط بين الرُّكوع والسُّجود وبين التَّعظيم لربِّه، فيقول في ركوعه: (سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم)، وفي سجوده: (سبحان ربي الأعلىٰ، سبحان ربي الأعلىٰ، سبحان ربي الأعلىٰ)[(٢)]. وفيه ما فيه من التَّعظيم والتَّفخيم والإجلال.

وقد عبَّر سحرة فرعونَ عن التَّعظيم بالسُّجود، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف] «لما رأوا من عظيم القدرة وما تيقنوا به نبوة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وانضاف إلىٰ ذلك الاستهوال والاستعظام والفزع من قدرة الله تعالىٰ؛ فخَرُّوا سُجَّدًا لله تعالىٰ متطارحين»[(٣)].

(١) أخرجه مسلم (١١٠٢).

(٢) من خبر حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في (سنن النسائي: ١١٣٣)، وصححه الألباني.

(٣) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٨١).

الخاتمة

بحمد الله تعالىٰ وتوفيقه تمّ ما أردنا جمعه وتقديمه لمؤتمر تعظيم الله تعالىٰ في ضوء الهدايات القرآنية، من بحث (تدبّر القرآن الكريم وأثره في تعظيم الله تعالىٰ)، وأهمّ ما توصلت إليه ما يلي:

١- إنَّ من مقاصد إنزال الكتاب الكريم وتحقيق بركته في العالمين: تدبّر آياته.

٢- إنَّ التَّدبُّر علم وسلوك يراد به في اصطلاح أهل العلم: «إنعام النظر وإجالة الفكر في آيات الكتاب العزيز، لتحصيل المعاني والحِكَم المقصودة وراء النصوص والظواهر، بما لا يخرج عن معهود الاستدلال وأعراف الاستنباط».

٣- إنَّ مجامع التَّدبُّر تتلخَّص في التَّفهُّم والتَّفكُّر للألفاظ والدَّلالات القرآنية، والتَّأمُّل الوفير لتعقُّل الحجج الإلهية والحكم الرَّبَّانية لتحريك القلب والفؤاد استبشارًا أو انزجارًا، والعزم علىٰ حمل النَّفس علىٰ الإقبال علىٰ مراد العليِّ العظيم بلطيف خطابه، والاتّعاظ بالمواعظ الرَّهيبة التي تتضمنها الأخبار والمطالب القرآنية من الأوامر والنَّواهي، ثمّ التَّحقُّق بأخلاق القرآن، والتَّصديق بمقاصده ومراميه باتباع القرآن، والعمل بأحكامه وآدابه.

٤- إنَّ الأدوات التي يحتاجها المتدبِّر لتحقيق التَّدبُّر الحقّ قلبية ذاتية، من التَّفهُّم، والتَّأمُّل، والتَّفكُّر، والتَّذكُّر، والاعتبار.

٥- إنَّ أقفال التَّدبُّر علىٰ ثلاثة أنواع: الأقفال المعطِّلة، والأقفال المضعِّفة، والأقفال الصَّارفة.

٦- أظهر القرآن وجوهًا ناصعة الجبين نيّرة الطّلعة تدلُّ المتدبِّرين علىٰ أوجه تعظيم الله تعالىٰ في الكتاب الكريم، وقد أظهر البحثُ خمسةً منها، هي: تعظم القيُّومية، وتعظيم الحَسيبية، وتعظيم العَلِّيّة، وتعظيم الرُّبوبية، وتعظيم الألوهية، وتعظيم الأعظمية.

٧- إنَّ مظاهر التَّعظيم في كتاب الله كثيرة، وقد وقفنا وأظهرنا تسعة منها، يُجري فيها العلماء التَّدبُّر في آيات ودلالات، كتدبُّر التَّعظيم في الأسماء والصِّفات، وبتنزيه الله تعالىٰ عن التَّخليط، وبنفي النِّدِّ عنه تعالىٰ، وبنفي العَبثية عن الحقِّ سبحانه، وبتدبر التَّعظيم بخواتيم الآيات، وبالأقسام والأيمان، وبتدبُّر آيات اللِّقاء الأخروي، وبالتَّنبُّه لعظمة الله الخالق، وبتوحيد الطَّاعة وتوجيه العبادة.

وهذا البحث يحتاج إلىٰ مواصلة وتكميل، خاصّة في مسائل التدبر ومباحثه وقضاياه، وكذلك الوجوه والمظاهر، فنسأل الله تعالىٰ أن يهييء لنا وللباحثين استكمال هذه المباحث والوجوه والمظاهر، والحمد لله ربِّ العالمين.

أهم المصادر والمراجع

- اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ غزو المعطلة والجهمية، لابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، محمد بن محمد الغزالي، الناشر: دار المعرفة –بيروت، وبتحقيق سيد عمران، طبعة ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، دار الحديث القاهرة.
- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، لأبي عبد الله الفاكهي، محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي، تحقيق د. عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
- الأسماء والصفات، للبيهقي، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي، تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي – جدة، الطبعة الأولىٰ.
- أصول السنة، لابن أبي زمنين، مع رياض الجنة بتخريج أصول السنة، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأندلسي، تحقيق عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، نشر مكتبة الغرباء الأثرية، طبعة ١٤١٥هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، دار الفكر، دمشق.
- أوضح المسالك إلىٰ ألفية ابن مالك، لجمال الدين عبد الله الأنصاري، دراسة وتحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولىٰ، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م. دار إحياء الكتب العربية.

- التأثّر بالقرآن والعمل به، أسبابه ومظاهره، د. بدر بن ناصر البدر، مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبي الفيض، الملقّب بمرتضىٰ الزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون.
- تاريخ بغداد، لأحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية- بيروت، بدون.
- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
- الترغيب والترهيب لقوام السنة، أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني قوام السنة تحقيق أيمن بن صالح بن شعبان، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي، بدون.
- التعريفات، للشريف الجرجاني، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٥هـ.
- تعظيم قدر الصلاة، لأبي عبد الله المروزي، لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، تحقيق د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦هـ.
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ.
- تفسير الإمام التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولىٰ١٤٢٣هـ.
- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مكتب التحقيق بدار هجر، دار هجر، الطبعة الأولىٰ، بدون. وبتحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

- تفسير القاسمي محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي (شاملة).
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- تفسير القشيري، (لطائف الإشارات)، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، بدون.
- التفسير الكبير مفاتيح الغيب، للإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.
- التوقيف علىٰ مهمات التعاريف للمناوي، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت، دمشق، الطبعة الأولىٰ ١٤١٠هـ.
- التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، للمناوي، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ودار الفكر - بيروت، دمشق، الطبعة الأولىٰ١٤١٠هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة،الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- الجامع الصحيح المسمىٰ صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبي عبد الله، دار الشعب – القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- الجامع الصحيح المسمىٰ صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة بيروت، بدون.
- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (دستور العلماء)، للقاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، حققه وعرّب عباراته الفارسية حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان بيروت، الطبعة الأولىٰ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠ م.
- جامع المسائل لابن تيمية، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني تحقيق محمد عزير شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
- الدر المصون في علم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (شاملة).
- ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب.
- زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.
- الزاهر في معاني كلمات الناس، للأنباري، أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت – ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- الزهد لابن المبارك، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون.
- سنن ابن ماجة، لابن ماجة أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق فؤاد عبد العاطي، دار الفكر، بيروت، بدون.
- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت، بدون.

- سنن البيهقي الكبرىٰ، لأحمد الحسين بن علي بن موسىٰ أبي بكر البيهقي، عبد القادر العطا مكتبة الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- سنن الترمذي، لأبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٩٨ م.
- سنن النسائي الكبرىٰ، لأحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
- سنن سعيد بن منصور بتحقيق سعد بن عبد الله آل حميد، طبعة دار العصيمي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ.
- شرح السنة، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط - زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
- شعب الإيمان لأحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف علىٰ تحقيقه وتخريج أحاديثه مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
- صحيح الترغيب والترهيب للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الخامسة، بدون.
- ضعيف الترغيب والترهيب للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض، بدون.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم بالدمام، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م.
- العرش وما رُوِي فيه، لأبي جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي، تحقيق محمد بن خليفة بن علي التميمي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولىٰ ١٤١٨هـ.

- الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد عبد القادر عطا-مصطفىٰ عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- الفرج بعد الشدة، لأبي علي التنوخي، القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي.
- فضائل القرآن لأبي عبيد، القاسم بن سلام، تحقيق مروان العطية - محسن خرابة - وفاء تقي الدين، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.
- فقه الأدعية والأذكار، للشيخ د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
- فن التدبّر في القرآن الكريم، د. عصام بن صالح العويد، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
- القاموس المحيط، للعلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، تحقيق مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، اعتنىٰ به خالد بن عثمان السبت، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ، دار ابن الجوزي.
- القواعد والأصول وتطبيقات التدبر د. خالد السبت، نشر مركز تدبر للدراسات والاستشارات، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.
- كتاب التهجد وقيام الليل، لابن أبي الدنيا، أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي، مكتبة الرشيد - الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٨م.
- كتاب عوارف المعارف للسهروردي، شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ، دار الكتاب العربي بيروت طبعة ١٤٠٧هـ.

- الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسىٰ الحسيني الكفوي، تحقيق عدنان درويش – محمد المصري، بدون.
- لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ- ١٩٩٤ م.
- المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، ودار الكتاب العربي القاهرة، بيروت طبعة ١٤٠٧هـ.
- مجموع الفتاوىٰ لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق أنور الباز – عامر الجزار، دار الوفاء الطبعة الثالثة، ١٤٢٦ ه ٢٠٠٥ م. وطبعة مؤسسة الرسالة-بيروت.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحقّ بن غالب بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق مجموعة من الباحثين، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دولة قطر، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م . وبتحقيق عبد العزيز بن ناصر الجليل، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٩هـ، القسطاوي للطباعة والتجليد، بدون.
- المستدرك علىٰ الصحيحين، لمحمد بن عبد الله أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١– ١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب بيروت، بدون. وبتحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة قرطبة القاهرة.

- مسند الطيالسي، لسليمان بن داود أبي داود الفارسي البصري الطيالسي، دار المعرفة–بيروت، بدون.
- المصنف، لعبد الرازق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- مصنف ابن أبي شيبة، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، تحقيق كمال يوسف، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٩هـ.
- المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، ١٤١٥هـ.
- المعجم الكبير لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.
- المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفىٰ أحمد الزيات حامد عبد القادر محمد النجار، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، بدون.
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر طبعة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا يحيىٰ بن شرف بن مري النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، تحقيق وتعليق الحسين آيْت سعيد، مراجعة وتنسيق د. محمد أولاد عتّو، نشر وزارة الأوقاف القطرية، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م.
- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد: عدد من المختصين بإشراف الشيخ د. صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نشر دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الرابعة، بدون.
- الموطأ، لمالك بن أنس ابن مالك بن عامر الأصبحي المدني، إمام دار الهجرة، بدون.